بحث حول تنمية الحوار الحضاري بعنوان :

« تجديد الحضارة المعاصرة »

« بحسب ما تقتضيه حقيقة الإنسان ومعنى حياته ومصيره »

« في حوار وتعاون بين الشرق والغرب وتطلّعات لنظام »

« عالمي جديد في القرن الحادي والعشرين »

بقلم : أ . د . محمد عبد الهادي أبو ريدة

« ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا

فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم »

(قرآن كريم ٢/١١٥)

"And to God belong the East and the West; Whithersoever you turn there is the Face of God ... "

(Qor an II, 115)

God's is the East	Gottes ist der Orient
God's is the West	Gottes ist der Okzident
North-and-Sourthern lands	Nord-und-Sudiches Gelande
Rest in the peace of His hands	Ruht im Frieden Seiner Hande

(Göthe: West-östl. Divan).

ولله المشـــرق

ولله المغـــرب

وبلاد الشـمال والجـنوب

مستقرة بسلام في راحة يديه

He, who knows himself and others	Wer sich selbst und andere kennt
Will also recognize	Wird auch erkennen:
That East and West	Orient und Okzident
Should no longer be separated	Sind nicht mehr zu trennen

(Göthe)

من عرف نفسه وعرف الآخرين

سيعترف أيضاً

أن الشرق والغرب

لم يعد ممكناً أن ينفصلا

* سلم هذا البحث لنا الأستاذ الدكتور المرحوم محمد عبد الهادي أبو ريدة الذي انتقل إلى رحمة الله في نوفمبر ١٩٩١ ننشره في هـذا العدد الأول من « مجلة الجمعية الفلسفية المصرية » التي كان سيتولى الإشراف عليها تحية له في ذكراه الأولى مع صادق العرفان له ولمساهماته الفعالة في أنشطة الجمعية الفلسفية المصرية

تمهيـــد :

هـذه نظـرات وآراء ، بعبـارات مـوجـزة ، ومن وجهـات نظـر عـامـة ، حـول الحضـارة المعاصرة في الشـرق والغـرب ، وهـي لا تضيف علمـاً جديداً للمتخصصين في الحضـارة وتاريخهـا ، لكن المقصود أن تكـون موضوع حـوار ومناقشـة ، بحثاً عن التفـاهم والتعاون حـول أمور الإنسـان المعاصـر وحول نظـام حياتـه ، والإنسان هـو الذى ينشىء الحضـارة لنفسه ويجعلهـا في ذاته ، ويعيش في إطـارها الـذي يصنعه ، ويتعـرض لنتائجهـا ، سواء كانت خيراً له وسعادة أو كانت شراً وشقاءاً .

وقد شهد القرن الذي نعيش فيه ، وأوشك على الانتهاء ، تغيرات وتطورات كبيرة ، منها ما كان في الحقيقة انقلاباً متنوع الصـور ، وتمخض عن أزمات كثيرة ، وكان الغرب أكثر تعـرضـاً لهـا من الشـرق ، لكنـه كـان أكثـر إدراكـاً لمشكلاتهـا واجتهـاداً في العمل على معالجتها .

وعالم اليوم قد أصبح مترابطاً ، بل موحداً إلى حد كبير ، بحكم كثرة وسائل الاتصال والخطاب ، واتسـاع المجال للتأثير والتأثر ، وكذلك بحكم تشابك المصالح في النظام الدولي الذي بدأ يسود منذ أول النصف الثاني من القرن .

وبعد التجارب المريـرة ونتائج حربين كبيرتين تيقظ شعور التعـاطف الانساني والمبادرة إلى العـون في تخفيف أنواع المعـاناة التـي تنشأ عن الاحداث الكبيـرة ، سواء جـاءت من كـوارث الطبيعـة أو من صنع الإنسان نفسـه وسـوء تقـديره لما يصنع . وإذا كـان الشعـور الإنسـاني قد تيقظ منـذ نهايـة الحرب العالميـة الثانيـة فإن أحداث حـرب الخليج ونتائجهـا أكدت من جديد الشواهد علط الشعور الإنسـاني ، بعد أن جاءت تلك الحرب ردعاً حاسماً لعـدوان غاشم ومـدمـر ، بلا أي مبرر أو تفكيـر ، وقـد جاء من دولـة كـانت تخطط لسياسـة القـوة دون اكتـراث بـالقـوانين والنظم الـدوليـة ، وبلا إدراك لما بين الـدول في عصـرنـا من ترابط المصالح التي لا حصر لها .

ومن المحزن حقاً أن يقع ذلك في الشرق ، في وقت يتأهب فيه الغرب ويخطط لنظم جديدة في التعاون بين دوله ، لكن الوسائل التي تحقق في ظلها ذلك العدوان كانت غريبة المنشأ وغريبة المصدر أيضاً ، وهذا أمر يؤسف له .

وبدلاً من الوقوف أمام ذلك الحادث الذي هزّ الدنيا أو الاشتغال بتحليل الاسباب والنتائج يجب استيعاب الدرس ، وهو ترابط المصالح بين دول العالم كلها وضرورة العمل الجاد المخلص وبذل الجهود من جميع الاطراف ، لاجل التفاهم بين الشرق والغرب ووضع الاسس السليمة التي تتفق مع طبيعة الاشياء ومع معطيات التاريخ لإنقاذ الإنسان وإسعاده وتجديد حضارته والعمل على ازدهارها ، في سلام وأمان في كل مكان .

على أنه إذا كان النظام العالمي ، السياسي والدولي ، الذي تعيش الأمم في ظله اليوم قد أكد قيمة الإنسان وحقوقه وأن الإنسانية قد قطعت شوطاً كبيراً في هذا الطريق ، إلا أن الاهداف لم تتحقق كلها إلى اليوم . وهي إذا كانت قد أخذت تتحقق في الغرب بشطريه الشرقي والغربي إلا أن الشرق لا يزال وراء الغرب في ذلك بكثير ، لان هناك رواسب عديدة ومتنوعة ، إلى جانب مشكلات لابد لها من حلول عادلة .

فلا تزال هناك تعصبات على أساس اللون ، أو العرق ، أو على أساس من الدين بوجه عام ، أو على أساس دين سابق يريد أصحابه أن يقاوموا اتجاه التاريخ ، في نوع من التحدي الواضح للأديان اللاحقة وكل ما لها من وجود وحضارة في عالمها الكبير في الشرق والغرب .

وهناك أيضاً أيديولوجيات خيالية ، ظهرت في الشرق ، تحاكي بعض ما كان قد ظهر في الغرب وهي تتجاهل الفوارق ، ولا تبالي بالحقائق الكبرى التي تتعلق بالوجود والكون ، وتتعلق خصوصاً بالإنسان ومعنى حياته على الارض ومصيره بعدها ... إلى غير ذلك من مخالفات الماضي البعيد أو من أوضاع لم تتطور إلى ما يلائم حياة العصر .

إن كل الجهود والاعمال والوسائل لإصلاح أحوال الإنسان الحديث والرقي الحقيقي به وبحضارته يجب أن تراعى جوهر هذا الإنسان ، وأن تتمشى مع مميزاته . وإذا كان الكلام هنا عن الشرق والإنسان الشرقي وعن الغرب والإنسان الغربي فإنه يجب أن نصرف النظر عن المعني الجغرافي ونتجه إلى المعاني الإنسانية ، خصوصاً الروحية ـ الاخلاقية ، في نظرة متعمقة إلى نوع الإنسان باعتبار أنه ، رغم اختلاف الالسنة والالوان والبلاد ، يؤلف أسرة واحدة . وقد قدر له ، في خطة الخلق الكبرى ، أن يمثل مرتبة عليا ومتميزة بين الموجودات التي نعرفها أو نسمع عنها ، وأن له حياة طويلة سابقة على حياته على الارض وحياة لاحقة لها ، وهذا أمر واضح ، لان هذه الارض التي نعيش عليها حديثة العهد ، رغم عمرها الطويل . وفي فترة طويلة من تاريخها لم يكن عليها أي أثر لحياة مما نراه عليها ، ولا كانت طبيعتها تسمح بذلك ، ثم ظهرت عليها الحياة وازدهرت ، وظهر عليها أخيراً نوع الإنسان .

إن كوكب الارض فريد على نحو يستلفت النظر ، بين مجموعة من كواكب أخرى مصاحبة له ، لكنها غير مشابهة له ، بفضل ما عليه ، من الحياة بكل مظاهرها ، ومن حضارات عظيمة نشأت وازدهرت . وعلى هذا الكوكب ظهر الإنسان بكل ما نشاهده من إنجازاته الكثيرة إلى أن أخذ ينطلق في آفاق الكون أو ينفذ من أقطار السموات والارض بقوة يتوصل إليها ، كما يسمح القرآن الكريم بهذه الإمكانية التي بدأت تظهر بالفعل على يد الإنسان الحديث (س الرحمن / ٣٣) .

الإنسان في الكون :

قد يكون من الواجب أن يتساءل البعض من جديد عن الإنسان وحقيقته ومعنى حياته في هذا الكون ، بعد أن أصبح ، إلى حد كبير ، إنساناً مفكراً صانعاً مبدعاً في نظام

الطبيعة ، على المستوى الدقيق الصغير ، وعلى المستوى الواسع الكبير ، وذلك بفضل قوة خياله وفكره ، وقد أصبح هذا السؤال شديد الإلحاح ، لان كثيراً من التشويش قد صار يحيط بالإنسان ، بسبب كثرة الآراء حوله ، وخصوصاً بسبب ظهور آراء تتجاهل معنى حياة الإنسان في هذا الكون ، سواء من جانب مفكرين أدباء معروفين لكل مثقف ، ولهم أنواع من التفلسف الخاص الناشيء عن عدم النظرة المتكاملة للإنسان في حياته وعالمه وعن أزمات الفكر والحضارة ، أو من جانب علماء الكون والفيزياء الكونية ، يطمحون إلى الكتابة عن الدقائق الاولى لنشأة الكون ، لكنهم لم يكملوا نظرتهم للكون باستخراج النتائج والادلة الكثيرة على مصدر هذا الكون .

وإذا كان بعض الادباء والادباء المتفلسفين يقفون أمام لغز الحياة والموت ومعاناة الإنسان في حياته على الارض أو لا يرون إلا جانب المعاناة والمتاع والالم ، فإن بعض العلماء الذين تقدمت الإشارة إليهم لا يتجاوزون بتفكيرهم ظاهر الواقع وما له من قوانين، دون تعمق ، حتى نجد قول أحدهم أن هذا العالم كلما بدا لنا قابلاً للدخول في إطارات الفكر بدا سخيفاً لا معنى له Plus l'univers nous semble comprehensible, et plus il semble absurde.*

والنتيجة لهذا كله هي الاستخفاف بالحياة الإنسانية في جانب ، والاستخفاف بالإنسان وكوكبه في جانب آخر إلى حد الزعم بأن الإنسان يحب من غير مبرر كاف أن يقنع نفسه بمكان متميز من هذا العالم .

والإنسان يعجب إذا كان عالم بالكون قد انتهى إلى هذه النتيجة ، ثم يقول إنه يتعزى عن الوضع كله بأنه يستطيع أن يجلس في مكتبه ويقرأ ويدرس . لكن أليس من الواجب

* Steven Weinberg: Les trois premières minutes de l'univers.

عليه أن يتفطن على الاقل إلى أنه يعيش بعقله في الكون ويفكر ، في واحد من أعظم الانسجامات في الوجود ، أعني التجاوب الرائع بين عقل الإنسان وبين الكون .

نعم ، إن الإنسان ، إذا نظرنا إليه بين موجودات كوكبه وجدناه من حيث الظاهر يحتّل مكان الذروة في عالم الاحياء ، لكن الذرة البسيطة في عالم الاحياء تشتمل من القوى والاسرار على ما يحير العقول العلمية الفلسفية ، فما بالك بالإنسان الذي يتصور نظام الكون بفكره ويتصرف فيه بقدراته وإبداعاته ؟؟

الحق أن الإنسان يتميز بين الموجودات المحيطة به ، لا من حيث الدرجة فحسب بل من حيث الدرجة والنوع ، وهو يتميز في جوهره ومواهبه وقدراته وإنجازاته التي تحققت ، ولا حدود لتنوعها ، ولا حدود لما يمكن أن يتحقق على يديه ، وهذا مع أن الإنسان الحديث لا يزال في بداية سلطانه وسيطرته على الطبيعة . والمهم والواجب عليه هو أن يحافظ على نفسه من الطبيعة الخاضعة لسيطرته ومن أفعاله في الطبيعة وفي نفسه . وكل الدلائل تشير إلى أنه سيد الطبيعة بإمكانياته الكبيرة ، وأنه أيضاً السيد حقيقة في تدبير أمور نفسه بفضل عقله وإرادته ، إذا هو شاء ذلك .

ولا يصح أن يتصور عقل أن يكون وجود هذا الكون ووجود الإنسان فيه مجرد مصادفة ، لان عقل الإنسان يرفض ذلك إذا هو تأمل **أولاً** : هذا النظام الكوني بقوانينه الموحدة المترابطة ، ولاحظ **ثانياً** : أن الكون كله بسمائه وأرضه قد أصبح في متناول فكر الإنسان ، بعد أن كان تصوراً في خياله ، كما صار في متناول صموحه إلى العمل والتصرف في الطبيعة المحيطة به عن قرب وعن بعد إلى حد ما .

إن الواجب على الإنسان أن يحترم قوانين عقله إذا أراد أن لا يناقض نفسه ، وعقله يوجب عليه أن يتوصل بالاستدلال إلى المعنى العظيم لوجود هذا الكون والمعنى الاعظم

وهو وجود الإنسان فيه بمميزاته الطبيعية المادية ومميزاته العقلية ـ الروحانية ـ الاخلاقية . وعند التأمل الكافي يتبين للمتفكر أن هذا الكون قد لا يكون له معنى بدون وجود هذا النوع الإنساني فيه ، وكذلك لا يمكن أن يصلح لتصور هذا الكون والحياة إلا الإنسان نفسه .

وهذا الانسجام بين الكون والإنسان أعظم وأجل ما ينبغي أن يشتغل به العلم الحديث الذي من شأنه أن لا يغفل عن واقع عظيم يشاهده ، وأن تشتغل به الفلسفة بمعنى جديد، وهو أن تنبني على العلم ونتائجه . وكل ذلك لاجل معرفة حقائق الاشياء ومصدر وجودها بما فيها ما بين الكون وبين الإنسان من علاقة واضحة .

ولا شك أن أصدق ما كتبته يد إنسان مفكر متأمل متعمق قول مفكر إسلامي هو أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الاصفهاني (ت ٥٠٢ هـ ـ ١١٠٨ م) في كتابه « تفصيل النشاتين وتحصيل السعادتين » : إن الإنسان هو المقصود من وجود العالم ، وأن ما عداه موجود لاجله .

وبدلاً من القول على سبيل المتابعة لمذهب داروين أن الكائن الحي ، أو الإنسان ، استطاع أن يحافظ على بقائه بفضل قدرته على الملاءمة مع البيئة يحسن ذكر ما أدت إليه الدراسات العلمية بعد ذلك من أن نظام الطبيعة نفسه كان في أساسه ملائماً لوجود الكائنات الحية وخصوصاً الإنسان .

وعلي هذا النحو نجد الحل لمشكلة الإنسان التي كان فيها البيولوجي المتفلسف الانجليزي جوليان هاكسلي Julian Huxley (ت ١٩٧٥م) طرفاً بكتابه Man stands alone (الإنسان يقف وحده) ، يقصد أنه لا يوجد إله يعني به ، وكان الطرف الثاني كريسي موريسون A. Cressy Morrison رئيس أكاديمية العلوم في نيويورك بكتابه

Man does not stand alone (الإنسان لا يقف وحده) ، يقصد أنه يوجد إله حكيم أظهر الإنسان في هذا العالم وهو يظله برعايته .

وإذا كان البيولوجي الانجليزي قد وقف عند تسجيل الواقع العلمي الذي شاهده فإن العالم الامريكي خطا بفكرة الخطوة الطبيعية إلى استخلاص النتائج المنطقية من ذلك الواقع .

ويبقى بعد هذا وجوب التنبيه إلى نوع هذا العالم الذي يعيش فيه الإنسان ، وهو عالم فيه قوى الطبيعة في تفاعل وصراع كبير ، وفيه الاحياء أيضاً في صراع مع الطبيعة ، وصراع فيما بينها ، وفيه صراع مع الطبيعة واجتهاده في السيطرة عليها ، وهو كذلك في تفاعل بل في صراع بين مطالب حياته وخصوصاً مطالب القوى البدنية التي يستخدمها وبين مطالب فكره وشعوره الخلقي الذي يعترف به الجميع ، حتى داروين الذي يؤكد ، رغم ما في مذهبه حول الإنسان ، أن الإنسان يتميز بين عالم الحيوان بإحساساته الخلقية . وهذا يشير إلى ما يسمى « الضمير » Conscience الذي يرى الاخلاقي الإنجليزي الكبير المتفلسف بتلر Bishop Butler (١٧٥٢ م) أنه مبدأ له حكم أعلى من حب الذات بل من البر بالغير ، لانه يراقب سلوك الإنسان ويحكم على أفعاله بأنها خير أو شر ، ويلزمه أخلاقياً بهذا الحكم . يقول الاسقف « لو أنه كان للضمير من القوة بقدر ما له من صواب ومن السلطان بقدر ما له من وضوح الحجة لامكنه أن يحكم العالم حكماً مطلقاً » .

"Had it strength, as it has right, had it power, as it has manifest authority, it would absolutely govern the world".

إن هذا العالم الذي نعيش فيه نوع من العوالم التي أبدعتها قدرة الله ، بين عالم روحاني وعالم مادي ، والإنسان فيه كائن حي مفكر من نوع خاص أيضاً ، بين عالم من

كائنات حية روحانية وكائنات تحت الإنسان ، وهي عالم الحيوان وتحته عالم المادة . وهذا العالم الذي نعيش فيه هو الوحيد الذي يمكن أن تتحقق فيه المميزات الفريدة للإنسان ، وهي وجود العقل المبدع ، وكذلك وجود الميول والشهوات الحسية إلى جانب القدرة والارادة والطموح إلى السيطرة في عالم الطبيعة وإلى السيطرة في داخل الذات الإنسانية، لكي يتحكم الإنسان في شهواته وميوله وطموحاته ، ممتثلاً لحكم عقله ، وبذلك يؤدي رسالة مميزة له في عالم مناسب لوجوده ، وقد ظهر فيه ليؤديها .

وهذه هي رسالة العلم والمعرفة من جهة ، ومن جهة أخرى هي رسالة الحياة على أساس الاخوة الإنسانية ومراعاة مبادىء الحق والعدل وتربية روح المحبة والبر والرحمة بين الناس .

ومن كان لا يريد أن يؤمن بهذه المبادىء باعتبار أنها قد جاءت بها وأكدتها الاديان المنزلة ، فهو مضطر إلى الإيمان بها على أساس حكم العقل السليم والضمير المستقيم . ولو أن الإنسان اجتهد حقاً في توجيه سلوكه بحسب ما يحكم به عقله ويمليه عليه ضميره من معاملة الناس والمحبة لهمم بمثل ما يحبه لنفسه لسعدوا جميعاً .

آراء جزئية في الإنسان ونظرة متكاملة تحيط به :

الآراء والتصورات حول الإنسان كثيرة لا حصر لها ، وهي لحكماء ، وشعراء ، وفلاسفة مؤمنين وغير مؤمنين ، وعلماء من كل اتجاه ، ولادباء قدماء ومحدثين ، وكثير منها لا تتناول إلا جانباً واحداً في الإنسان ، وهو عند الكثيرين الجانب السلبي .

فمن ناظر إلى هذا العالم أنه وهم Maya ، وأن وجود الإنسان فيه شر ، عليه أن يتخلص منه (البوذية) .

وعند بعض الفلاسفة (أفلاطون) ، على أساس عليم بأديان سابقة ، أن نفس

الإنسان جاءت من عالم آخر ، بسبب خطيئة ، فسجنت في البدن ، ويجب أن تعمل على التخلص من سجنها من طريق الفلسفة .

وعند فيلسوف آخر (أرسطو) أن الإنسان حيوان يتميز بالفكر وأنواع من النشاط في مجال الرغبات والشهوات . لكن يجب عليه أن يوجه حياته بحسب حكم العقل ، ليكون من جهة فاضلاً ، ومن جهة سعيداً ، بقدر ما تسمح هذه الدنيا المتغيرة الاحوال .

وعند فيلسوف آخر مثل الابيقوري الروماني لوكريتوس Titus Lucretius (ق ١ ق م) أن هذا العالم ، وكذلك الإنسان فيه ، ظاهرة جاءت بالصدفة ، والطبيعة تقف ضد الإنسان، ومهما حاول أن يحفظ أو يسمو بها بالعلم والمعرفة إلا أنه أشبه براكب جواد ، ولجامه ليس في يده ، ويستطيع الجواد أن يجمع به ويقذف بهم إلى الارض في أي لحظة .

وكان هناك فلاسفة مثل الطبيب الإسلامي أبو بكر الرازي (ت حوالي ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م) الذي قضى كثيراً من حياته في المستشفيات وفي علاج المرضى ، فكان يرى - ورأيه كان معروفاً ومذكوراً في كتب الفلاسفة الاوروبيين - أننا إذا قارنا بين أيام راحة الإنسان ولذاته وبين ما يصيبه من الآلام والاسقام فإننا نتبين أن وجوده - هكذا يقول الرازي - نقمة عليه وشر عظيم .

أما الشاعر الضرير أبو العلاء المعري (ت ٤٤٩ هـ / ١٠٥٨ م) فإنه قد عبر في الكثير من شعره عن نقائص بني آدم وشبه الإنسان بالنسبة لاخيه الإنسان بسبع وذئب ، كما عبر عن مآسي الحياة والموت ، وأن الإنسان أمام لغز الحياة وتصرفها بالإنسان لا يستطيع التمييز بين ما يسر الإنسان حقيقة وما يسعده حقيقة .

ويكفي أن نذكر بيتاً واحداً له في ذلك :

إن حزنـاً في سـاعة المـوت أضعاف سرور في ساعة الميلاد

وكان من الفلاسفة في الغرب أيضاً الفيلسوف الإنجليزي هـويز Thomas Hobbes (ت ١٦٧٩) الذي كان يرى في الإنسان وحشاً كاسراً أنانياً يحب أن ينفرد بالخير ولا تردعه إلا سلطة الدولة وعقاب القانون .

وعلى العكس من ذلك نجد فلاسفة أخلاقيين متفائلين ، منهم من يشيد بما في الإنسان من الإنس الطبيعي بأخيه الإنسان ، ويؤكد حاجة الإنسان إلى أخيه الإنسان ، وهذا يوجب على الناس أن يتحابوا ويتعاونوا ليسعدوا جميعاً ، وهذا هو رأي ابن مسكويه * (ت ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م) .

وكذلك نجد في الغرب فلاسفة شعراء متفائلين ، مثل شاعر الالمان الكبير جوته Gothe (ت ١٨٣٢ م) الذي يرى في الإنسان نبلاً واستعداداً للمعاونة ، وهو بنبله يجعلنا نؤمن بإمكانيات السعادة ، وكذلك بوجود كائنات رفيعة كاملة نسمع عنها ، هذا إلى أنه يتمتع بالعقل والقدرة على الاختيار .

ومن الشعراء المتحمسين للشعور الإنساني النبيل مثلاً الشاعر الالماني شيللر Fried V, Schiller (ت ١٨٠٥ م) الذي يرى أن الإنسان خلق لكي يكون على الارض ملكاً سعيداً بفضل مشاعر التعاطف بين الناس ، فمن عاش في هذه المشاعر فهو السعيد ، ومن عاش في القطيعة فهو الشقي البائس .

وهناك شعراء عديدون (شعراء أكاديمية فلورنسه) : منهم من يرى أن الإنسان يمثل بروحه طوراً أعلى من هذه الحياة ، وهو يدرك وجود ذاته في الحب السامي الرفيع الذي يؤدي به إلى الجمال الاعلى ، لكن إلى جانب ذلك كان هناك من يرى في العصر نفسه أن

* هذا هو الاسم المشهور ، وفي بعض الروايات أن اسمه : مسكويه

الإنسان كائن طبيعي من هذا العالم ، وحياته تنتهي فيه .

Marsilio Fecino, Pico della Mirandola, petro Pomponazzi.

وكذلك كان من بين الاطباء المتفلسفين في عصر النهضة ، وهو Paracelsus الذي كان معادياً لابن سينا ، من كان يرى أن الإنسان كائن طبيعي ليس لهم أصل علوي ، هو مركب بدني ـ نفسي ، أشبه بطبيعة في داخل نظام الطبيعة ، وهو بهذا التركيب يصح وبه يمرض .

كل هذه وغيرها مما لا حصر له عبارة عن آراء جزئية ، وهي على كل حال آراء لاصحابها ، ولا تلزم أحداً ، وأصحابها لم يفرضوها على أحد ، ولم يربطوها بحساب أو جزاء ، هي مجرد فلسفة .

ويمكن تلخيص الاتجاهات الرئيسية فيما يتعلق بالإنسان في :

النظرة إليه في إطار العلم الطبيعي الذي بدأ بأرسطو واستمر إلى اليوم .

نظرة الفلاسفة في مختلف العصور ، وهي توجد في كتب « علم الإنسان الفلسفي » *.

لكن هناك الاديان المنزلة التي نعرفها عن قرب في المرحلة الاخيرة من تاريخها الطويل، ونحن نجد للإنسان حقيقة ومكاناً خاصاً متميزاً في الوجود ، والحياة ، وذلك في تصور يقوم على أسس واضحة :

أولاً : يوجد إله قادر حكيم أوجد هذا العالم العظيم الذي نراه ، إلى عوالم أخر نراها ، وهذا يؤيده كل علم صحيح وفلسفة حقة .

---

* مثل كتاب Bernhard Groethuysen بعنوان Philosophische Anthropologie ضمن المجموعة الكبيرة: Handbuch der Philodophie (برلين) .

ثانياً : أراد الإله تعالى أن يظهر في الوجود مرتبة الإنسان ، وفي التوراة أنه أظهرها على صورة الإله ذاته ، لا بالمعنى الجسماني المحسوس ، لان الله تعالى منزه عن ذلك ، بل بمعنى ظهور صفات في الإنسان تجعله منتمياً في حقيقته إلى عالم أعلى ، وكل الدلائل تدل على أن الإنسان ، بل إن الحياة كلها ، لم تخرج من كوكب الارض .

وفي الحديث الشريف شيء من معنى ما في التوراة ، لكن القرآن نفسه صريح في أن الله تعالى نفخ في الإنسان روحاً علوية بواسطة الملك الموكل بذلك ، وهو قوله تعالى : « إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (ص ٧١ ـ ٧٢) .

ثالثاً : والإله تعالى جعل الإنسان في الجنة ليعيش فيها هانئاً ، وحذره من أمور ، لكن في فطرة الإنسان طموح . إلى جانب عدوله حسده على مميزاته ، وأراد أن يكيد له ، فخدعه وأضله حتى خالف التحذير وعصى ، كما في التوراة ، أو أنه نسى التحذير وعصى كما في القرآن ، فأخرجه الإله من الجنة إلى الارض .

رابعاً : وفي الاديان المنزلة الثلاثة أن الإله مهد للإنسان في حياته على الارض ، وأرسل له أنبياء وشرائع متجددة ، والإنسان مكلف باتباعها ، وهو مسئول عنها بعد الموت في حياة مقبلة يتحقق فيها الحساب والجزاء بحسب العمل .

هذه بالإجمال هي النظرة التي نأخذها من الاديان المنزلة ، وهي في الحقيقة متكاملة الاجزاء والمراحل ، وليس فيها فجوات ، وهذه الاديان ملزمة للإنسان ، وتتوقف سعادته عليها في هذه الحياة وفيما بعدها ، وما كان الإنسان ليصل إلى هذا كله لو أنه ترك ليعتمد على نفسه

وقد عاشت الإنسانية في ظل هذه الاديان إلى اليوم ، ونشأت حول عقائدها كلها علوم وفلسفات ، سواء فهم الناس كل شيء فهماً كاملاً أم لا ، وسواء عملوا بالإرشاد الإلهي تماماً أم قصروا في ذلك .

والآن ، الإنسان يعيش على هذه الارض ، سواء كان ظهوره ليكفر عن خطيئة يحملها في نفسه ، كما في التوراة والتراث اليهودي المسيحي ، أو كان ظهور بعد تربية له وإعداد عملي لرسالة يؤديها في الارض (الخلافة وعمران الدنيا بالإرشاد الإلهي ، كما في القرآن) . فإن النتيجة الوحيدة الواضحة هي أن الإنسان قد قام بعمران الدنيا بالفعل بعد أن أظهره الإله عليها . وأذن أن يتسلط على عالم الحيوان وأن يستغل الارض أو أن الله سخر « ما في السموات وما في الارض جميعاً منه » لكي ينهض برسالته ، كما في القرآن (الجاثية / ١٣) .

وهكذا أنشأ الإنسان في آلاف من السنين ، تمتد من ماض بعيد ، حضارته التي نشاهد آثارها ، بعد أن بادت ، وحضارته التي لا تزال آثارها باقية ، وحضارته في آلاف السنين الماضية ، وخصوصاً حضارته الحديثة التي تطورت إلى ما نرى . وهي الآن بعد ذلك التطور جدير بأن يفتخر بها الإنسان ، لكنها في الوقت نفسه ، وبسبب التطور بحسب طبيعة هذا الكون المحيط بالإنسان وطبيعة الإنسان نفسه ، تحتاج إلى مراجعة وتجديد وإلى نظام جديد نسمع الحديث عنه في الغرب ونسمع الاصداء في الشرق ، بعد الاحداث التي وقعت منذ أواسط عام ١٩٩٠ إلى اليوم ، فوضعت مشكلة الإنسان ومشكلة حضارته بما فيها من وسائل الخير ووسائل الشر موضع البحث والاجتهاد في الحلّ .

حضـــــارات متنوعـــــة :

كل ما على الارض الطبيعية الاصلية الثابتة ، هو من صنع الإنسان . وإذا كانت

الارض عليها زينتها ، من معالم الطبيعة وصور الحياة ، فإن الإنسان زينها بالفعل بحضاراته ، والإنسان إذا كان في طائرة يقطع الفضاء في ظلام الليل ويرى الاردض تحته ، في أوروبا أو في أمريكا أو في بعض بلاد الشرق فإنه يكاد يخيل إليه ، لكثرة ما يرى من الاضواء ذات الالوان الكثيرة ومن الاتصال المستمر بينها ، كأن تحته نوعاً من السماء المتألقة بنجومها وكوكبها الارض بما وهبه الله من ملكات وقدرات ذاتية وما وضعه تحت تصرفه على الارض من وسائل ، بحيث تحقق على يدي الإنسان ملك حقيقي أنشأه على الارض ، وهو ملك واسع وعريض قد بدأ وازدهر واتسع على الارض ، وأخذ يظهر في جو السماء ، ويتطاول إلى إمكانيات هو مؤهل لها ، وستحقق إذا هو أحسن استعمال مواهبه والإمكانيات التي تحت تصرفه وحاكى خالقه في الإبداع بقدر ما وهبه من قدرة على كوكبه .

حضارات متنوعة ولكل منها مميزاتها :

وهناك حضارات عظيمة قديمة العهد ، وقد ظلت محلية إلى حد كبير ، وانتشرت بحسب الإمكانيات العادية للإنتشار ، ولم نجد لها في التاريخ رسالة عالمية تنهض بها .

من ذلك على سبيل المثال الحضارة المصرية القديمة التي كانت حضارة يغلب عليها الروح الآخروي والاستعداد لحياة ما بعد الموت ، وهي قد ازدهرت ومعها علوم عظيمة .

والحضارة الصينية القديمة كانت حضارة عملية ، حضارة عدالة اجتماعية وعلاقات إنسانية تقوم على أسس أخلاقية ، ومع أنه كان هناك في الاذهان ما يشير إلى التدبير الإلهي مثل مفهوم « السماء » إلا أننا لا نجد لها رسالة خاصة .

أما الحضارة الهندية القديمة فقد كانت حضارة روحانية أخلاقية ، وقد ظل لها وجودها ، وكان لها ممثلون ، ولا تزال تستهوي المتعطشين إلى الحياة الروحية من شباب

الغرب الاوروبي الذي تخيم عليه الروح المادية . ومنهم من يجشم نفسه مشقة السفر لكي يعيشها .

وحضارة اليونان جاءت تسير على هدى العقل ، لكن مع كثير من الخيال ومع أنها توسعت بسبب فتوحات الإسكندر الذي ربما كان يطمح إلى تحضير الامم على النموذج اليوناني وربما كانت عنده أحاسيس من روح الاخوة بين الناس ، لكن لا نجد هناك رسالة من قبل إرادة عليا .

أما الحضارة الرومانية فقد كانت حضارة تنظيم للشعوب في ظل امبراطورية وإدارة بحسب قانون ، ورغم كل ما تركته من آثار متنوعة في القانون والادب والفن ، لكن لم تكن لها أهداف أعلى من ذلك .

وهذه أمثلة قليلة تحسن الإشارة إليها تمهيداً لما نحب التنبيه إليه .

حضـــارات الاديـــان المـــنزلة :

فإذا اتجهنا إلى الحضارات التي ظهرت في عالم الاديان المنزلة وجدنا أولاً حضارة دينية عناصرها الكبرى الشريعة واللغة والادب ، وهي - إذا صح التعبير - حضارة قومية لامة شعرت بذاتها وبصلة خاصة لها بالإله تعالى ، ولم يكن لها طموح إلى الانتشار على المستوى العالمي . والحق أن العوامل التاريخية هي التي ربما لم تمكنها من ذلك ، وروح هذه الحضارة حي في نفوس أبنائها ، ولم يمكن أن يتزلزل رغم المعاناة طول التاريخ .

لكن أهلها عاشوا سعداء وازدهرت حياتهم ازدهاراً كاملاً في دائرة الحضارة العربية الإسلامية على طول التاريخ في عالم الإسلام بشرقه وغربه ، وقد شاركوا في حضارة الفكر والعلوم والفلسفة إلى جانب الازدهار في جوانب الحياة العملية ، والازدهار في علوم العقائد عندهم وفي الفلسفة والعلم كان في موازاة ومحاكاة للتيارات العلمية

والفلسفية الكبرى في حضارة الإسلام . واليوم ومنذ أواخر القرن الماضي بدأت المشكلة التي ظلت تتطور وبلغت ذروتها في هذا القرن ، وخصوصاً في أيامنا هذه ، والمشكلة هي: كيف يمكن وجود وقيام هذه الحضارة في المكان التاريخي الذي يؤمن به أصحابها لكن بشرط مراعاة العدل وحقوق الإنسان واحترام الديانات اللاحقة التي كل منها عالم كبير ، وأهلها يؤمنون بصدق الديانة اليهودية ، لكن أهل هذه الديانة ينكرون الديانتين .

أما كل من الحضارتين المسيحية والإسلامية فإنه قد كان من أسس قيامها الاتجاه إلى تبليغ رسالة إلهية إلى العالم على سعته ، طبقاً لمبدأ الإيمان بالله وبالعدل والمحبة والبر بين الناس .

وكل من الحضارتين طويلة العمر راسخة الدعائم ، ولو أن أهلها تمسكوا بما تؤكده من مثل عليا إيمانية وإنسانية أخلاقية وبما تطالب به من الطموح إلى تلك المثل لكانت حضارتهم أعظم الحضارات وأكثرها إسعاداً لاهلها وكانت حضارة سيطرة على الطبيعة متمشية مع إرادة الخالق الحكيم .

لكن من طبيعة الحياة في هذا النوع من العالم ومن طبيعة التركيب الخاص في الكيان الإنساني ما يجعل الشر يشوب الخير ، والظلم يشوش على العدل ، فيكون الشر في الحضارة عنصراً ملازماً لها ، لا لانه مقصود لذاته ، بل لانه عنصر يجب أن يكون ، لكي تصبح مقاومته واجبة وفضلاً وإنجازاً عظيماً يقوم به الإنسان العاقل القادر المختار ، فيتحقق الخير بالقدر الذي تسمح به طبيعة الكون وما فيه من وسائل وطبيعة الإنسان وما فيه من تنوع القوى واختلاف اتجاهاتها . وليس من الممكن من الناحية العملية أن يستطيع الكائن المهيأ للخير الوصول إلى تحقيقه إلا بمقاومة ميل للشر وقدرة عليه . وهذا أمر لا يحتاج إلى دليل . وكل مشتغل بالتربية الاخلاقية والاجتهاد في استكمال النفس الإنسانية بالفضائل يعلم أن الفضيلة إنما تتحقق في مجال مقاومة نواحي الضعف في

الطبيعة البشرية ، وبذلك يتبين فضل الإنسان وانفراده بين المخلوقات التي نعرفها بأنه الوحيد الذي يكلف بالاخلاق ، إلى جانب تكليفه بما له من موهبة العقل بأن حياته إلى الفضائل على نور من عقله وإحساسه الفطري بالخير كما تقدمت الإشارة إلى ذلك .

الصـراع :

والآن ، من السهل أن نفهم أن الصراع بين البشر والحضارات أمر طبيعي ، بصرف النظر عن الصراع لمجرد البقاء أو لوسائل تساعد عليه . أو الصراع لاجل التغلب والسيطرة على البلاد والشعوب من أجل خيراتها أو صراع بإثارة الحروب لفرض أيديولوجيات معينة ، كما حدث في عصرنا ..

وكذلك نفهم الصراع بين أهل الدين الواحد بسبب اختلاف الرأي في مسائل دينية قد تكون وراءها عوامل سياسية ، ونفهم الحروب بين الأديان أيضاً .

ومع أنه يمكن إلتماس العذر للمتحاربين على اعتبار أن كلاً من الفرقاء يؤمن بصدق وإخلاص بأنه على الحق وأن خصمه على الباطل ، فيخشى منه على نفسه وعلى مذهبه .

لكن لا يصحُّ بأي حال من الأحوال أن تقوم الحرب مقامَ الموعظة الهادئة ، مع الحكمة، والطريقة الحسنة في الحوار والاقناع ، إذا اقتضى الأمر ، ومما يحسن الاقتداء به في هذا الباب ما جاء في القرآن الكريم من إرشاد يؤدي إلى الفهم والاقتناع .

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن »

(النحل / ١٢٥)

وأعتقد أن هذه هي القاعدة التي سار عليها جميعُ الأنبياء والرُسُل فيما بلّغوه عن الله، ولم يكن القتال إلا للدفاع عن النفس وبالتالي عن العقيدة التي يؤمن بها الإنسان .

ونحن لو نظرنا بهدوء مع إهتمام بالتحليل والبحث عن النوايا وتأملنا النتائج لاستطعنا أن نحكم في الأمر بإنصاف عن فهم وتفهم لمقاصد الغير .

وعلى سبيل المثال كان المسلمون مخلصين في إيمانهم برسالتهم وممتثلين لأمر الدين بأن يدافعوا عنه وبأن يبلغوا رسالته إلى الأُمم ، فخرجوا يحملونها ، فلما منعهم أهل البلاد التي وصلوا إليها من تحقيق غرضهم وقاتلوهم فانهم اضطروا للدفاع عن أنفسهم وعن تبليغ الرسالة التي جاءوا بها .

فلما دخلوا البلاد وأقاموا دولتهم فانهم لم يُكرهوا أهل الديانات المنزلة السابقة على الدخول في الإسلام ، لأنهم كما يسميهم القرآن « أهل الكتاب » ، أي الوحي المنزل من عند الله ليكتب ويتعلمه الناس . وقد كان الإسلام يصدق بما قبله من رسالات الأنبياء ، ويكمل ، ويريد إزالة الخلافات والعودة إلى وحدة الدين بعد أن انقسم المؤمنون بدين إبراهيم عليه السلام ، ولذلك ضمن حقوقَ أهل الأديان الاخرى بعهود ومواثيق مؤكَّدة ودائمة .

وكان ذلك كلُّه في حدود المائة سنة الأولى من تاريخ الإسلام وتبليغ دعوته ، أما بعد ذلك فقد انتشر الإسلام في العالم بالطريق العادي لانتشار الاراء والمذاهب ، وهو أنواع الاتصال التي تؤدي إلى التعارف والمعاملات ، وكان ذلك من غير خطة مرسومة تسير عليها هيئات أو ترعاها دول على نحو مباشر أو من خلف ستار ، وانتشار الإسلام على هذا الوجه هو الجاري في عصرنا .

والمثالُ الآخر هو الحروب الصليبية التي شنّتْها دول أوروبا على الإسلام في الشرق وكانت بدعوةٍ من البابوات ، وكانت لها مناسبة وهي أن Alexius امبراطور بوزنطه طلب النجدة من أوروبا كما أنه أيضاً استنجد بالبابا رئيس الكاثوليكية ، فاتجهت الإرادة إلى

استخلاص بيت المقدس والقبر المقدس من يد المسلمين ، وكانت هناك حروب استمرت نحواً من قرنين .

ولا شك أن الذين نظموها وقادوها تلك المدة الطويلة لم يكونوا يعدفون رسالة الإسلام، بسبب أنواع التزييف والأخطاء التي كانت تقدم للمسيحيين في أوروبا ، وإلا فكيف يعقل أن يذبحوا جميع من كان في بيت المقدس من المسلمين واليهود لو أنهم كانوا على علم برسالة الإسلام وإيمان المسلمين ، بحسب القرآن ، برسالة المسيح عليه السلام وميلاده الخارق للعادة وقداسة ه السيدة مديم ، هذا إلى كل ما في الإسلام من حقائق والعلم والأخلاق .

إن الجهل أو التجاهل المقصود أو غير المقصود في العلاقات بين الأديان هو السبب في عدم التعارف والتفاهم والتعاون والمعاملة بما يقتضيه العدل والإحسان ، ولذلك فإن الواجب اليوم هو أن يتعارف المؤمنون بالله في ظل الإيمان به وبحكمته وبكرامة الإنسان. على أنه كان في تلك الحروب كثير من أنواع الشهامة والترفع ، وفي أثنائها اطلع الغرب على حضارة الشرق واستفاد منها في ذلك الوقت وفيما بعد .

وفي عصرنا وبعد المزيد من معرفة الغرب الأوروبي والأمريكي بحقائق الإسلام أصبحت الدول في الغرب كله تأذن بإنشاء دورالعبادة والمراكز الثقافية الإسلامية في بلادها . وكان الإسلام قبل ذلك ومن أول مرة قد أقر أهل الأديان على دينهم وعلى إنشاء دور العبادة والمؤسسات الدينية على تنوعها .

أما دول أسبانيا التي حاربت الإسلام مدة طويلة وقضت على المسلمين وعلى حضارتهم بقسوة لا مثيل لها فإنها كانت تسير على سياسة لا محل لها في عصرنا ، واليوم نجد أسبانيا ، أن الحكومة التي أباحت حرية الدين والعبادة تأذن بإنشاء المساجد

والمراكز الثقافية الإسلامية ، وكذلك الحال في إيطاليا التي فيها القيادة والرياسة الروحية للمسيحيين .

وهكذا بدأ التوازن والتعادل بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي . وبعد قرون من عناية علماء لالغرب بدراسة الإسلام وعلومه وفلسفته وجملة حضارته استنارت عقول أوروبا بالمعرفة الصحيحة بالدين . ومن الطبيعي أن يأمل كل مؤمن مخلص ، مسلم و مسيحي ، في أن يتمسك الجميع بجوهر العقيدة الدينية ، بصرف النظر عن التفاصيل والجدال حولها بين أهل الدين الواحد أو بين الأديان المنزلة فيما بينها ، بحيث يحل التفاهم والإخاء الإنساني الإيماني بالخالق العظيم ووحدانيته وعنايته ورحمته محل التباعد والشعور بالغربة والحق أنه إذا لم يشعر المؤمنون بالله الذي خلقهم وشرع لهم الدين وبين لهم معنى حياة الإنسان على هذه الأرض فكيف يكونون مؤمنين به وبأنفسهم حق الإيمان ؟؟

تطور الحضارة الإسلامية وصلتها بالحضارة الغربية :

قبل الكلام في تطور الحضارة الإسلامية وصلتها بالحضارة الأوروبية لابد من التنبيه إلى أن الشرق هو مهبط التعليم الإلهي للبشر ومهد حياة الإيمان الهادىءوالاستعداد لما بعد الحياة الدنيا . والدين المنزل قد انتقل من الشرق إلى الغرب ، وهو أعظم ما قدمه الشرق إلى الغرب وأعظم حقيقة في حياة الإنسان . وكان الدين محور العلاقات بين الشرق والغرب، سواء كان ذلك في مجال التحدي والصراع أو في مجال حياة الفكر كما يتمثل في العلم والفلسفة وعلوم العقائد والأدب والفن.

وكما أنه لا يمكن أن نتصور على أي نحو كانت ستتشكل الحياة والحضارة في الشرق فكذلك الحالفي تصور حضارة الغرب. وإن روح الدين المنزل في كل من العالمين

الشرقي والغربي هو محور حضارته العميقة، لأن الدين بعقيدته وشريعته ونظمه وأخلاقه وروحانيته وآداب إنما هو دين للإنسان ، والإنسان هو الذي ينشىء حضارته على أساس الدين، وهو الذي يحملها في نفسه، وسيظل الدين حقيقة كبرى في حياة الإنسان، مهما تغير أو اختلف المظهر والإطار الخارجي للحضارة ، ونحن نرى اليوم في أوروبا مقدار عمق الدين في النفوس. وقوة الإيمان به في التغلب على أشد النظم قهراً للإنسان.

وإذا كان يراد للشرق والغرب أن يتعاونا فليس هناك أساس ثابت يمكن الاعتماد عليه إلا الدين، إذا عرف المؤمنون جوهره وروحه وتمسكوا بذلك وبجملة التربية الإنسانية في إطار الحقائق الإيمانية والأخلاقية الكبرى وإني أشهد أني ما رأيت في الشرق والغرب مسلماً صادقاً ومسيحياً صادقاً إلا على الخير والمحبة والاحترام.

عالم الأمويين :

في القرن الأول للهجرة / السابع الميلادي انتشر الإسلام في رقعة من الأرض تمتد من شمال غربي الهند ومن غرب الصين شرقاً إلى الشام ومصر والشمال الأفريقي وأسبانيا حتى جنوب غربي فرنسا . وكانت تلك هي حدود « عالم الإسلام » في أول الأمر، وفي القرن الأول استوفت الدولة شروط وجودها ، وبدأت معالم الحضارة العمرانية تظهر في بلاد الإسلام، وكان ذلك هو عهد دولة العرب وحكم الأمويين في المشرق.

لكن دولة الأمويين لم تلبث أن ظهرت من جديد في أسبانيا ، ونشأت هناك حضارة عظيمة في رعاية خلفاء عظام، وجاءت تمثل المواهب والروح والملكات العربية الإسلامية الأسبانية وأرسلت أشعتها على أوروبا كلها .

العباسيون وحياة الفكر :

ثم جاء تغير بظهور الدولة العباسية منذ عام ١٣٢هـ/٧٥٠م ، على أسس جديدة وروح إنسانية واسعة تتفق مع مبادىء الإسلام التي تؤكد وحدة الأسرة البشرية ، فلما استقرت

الدولة تهيأت الظروف للإطلاع على معارف الأمم ، بحسب ما يتفق مع انفتاح عقول المسلمين على طلب العلم والبحث عن الحقيقة ، كما حض القرآن على ذلك خصوصاً على إقامة الإيمان على العلم واستعمال العقل ، وكان هناك طموح حقيقي رعاه الخلفاء ، وتحقق عمل ثقافي منقطع النظير ، تمثل في نقل علوم الأمم وفلسفاتها وأخبارها إلى اللغة العربية بأقلام مترجمين كبار من علماء الدين الأنصاري ، قاموا بعمل رائع في بغداد كان له عظيم الأثر في الشرق والغرب .

وبفضل الإقبال على الدراسة والاجتهاد في الفهم والنقد ظهرت من جهة الفلسفة الإسلامية ومختلف العلوم ، بإبداعات جديدة ، وظهرت من جهة أخرى علوم الدين على تنوعها بحسب مناهج جديدة ، واستمر ذلك قروناً في تطور وإبداع مستمر .

ومع أن ظروفاً كثيرة لا يتسع المقام لذكرها أدت إلى اضطراب في الحياة السياسية وإلى الانحلال دولة الخلفاء في المشرق ، إلا أن حياة الحضارة ، وخصوصاً حياة العلم والفسلفة ، لم تتوقف ، حتى بعد غزوات التتار المدمرة في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي . ثم آلت كل ثمرات تلك التجربة الحضارية في مجال الفكر العلمي والفلسفي والديني إلى أوروبا ، وبدأ ذلك منذ أواخر القرن العاشر الميلادي واستمر في معاهد ومراكز للترجمة في أسبانيا وفي صقلية (باليرمو) وفي إيطاليا وكثير من الجامعات التي نشأت في الغرب ، وكان ذلك حتى في البلاط البابوي نفسه ، وكان ذلك عملاً عظيماً موازياً لما تحقق في بغداد .

وكان في المغرب الإسلامي ، وخصوصاً في بلاد الأندلس فرع رائع لحضارة الإسلام، وكانت تلك البلاد الجميلة حلقة اتصال بين الشرق والغرب وملتقى طلاب المعرفة من مختلف بلاد أوروبا . وكلهم شخصيات معروفة ، وكان لها دور في حياة الفكر الأوروبي ، ومنهم من

أقام سنين ودرس علوم المسلمين وقدر له فيما بعد أن يتبوأ المنصب البابوي ، وهذا هو Sylvestre II, Gerberty d'Aurillac (ت ١٠٠٣م) الذي كان يسمى « البابا المتفلسف » .

معوقـــات ومكـــدرات :

لكن الحروب الصليبية التي استمرت حملاتها نحواً من قرنين ، ثم إخراج المسلمين من أسبانيا بطريقة بالغة القسوة أفسد العلاقة بين الإسلام والغرب .

ثم كان اهتمام الدولة العثمانية - التي بدأت دولة عسكرية - موجهاً خصوصاً إلى درء محاولات الغرب مهاجمة بلاد الإسلام في جنوب شرق أوروبا وكذلك محاولة تطويق عالم الإسلام من نواحي أخرى ، ومع ذلك تحقق في عصر تلك الدولة العظيمة كثير من العمران، كما تحقق الحفاظ على جملة التراث الديني والفكري ، إلى جانب التجديد في التكيف مع ظروف العصر ، لكنها ظلت على قدم الدفاع عن نفسها وعن الإسلام من هجمات الغرب وخططه إلى أوائل القرن العشرين ، وهزمت هي وألمانيا في الحرب العالمية الأولى .

والخلاصة أن الشرق قدم للغرب أعظم ما عنده وهو « الروح » ، وأن الغرب ظل عصوراً طويلة مصدر قوة مادية موجهة ضد الشرق . وغزوات الاستعمار التي اتجهت إلى كل بلاد الإسلام في آسيا وفي الشرق الأوسط والقريب وفي الشمال الأفريقي وفي جاءت أكبر دليل على ذلك .

ومن يتأمل تطور العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين الآخرين يدرك المعنى الكبير في بيتين لشاعر غربي ألماني هو فريدريخ ربكرت Friedrich Ruckert (ت ١٨٦٦م) ، الذي عرف الشرق وتذوق حضارة الإسلام وآدابه ، وهما قوله :

Ich sah wie vom Orient	ها قد شاهدت كيف أنه من الشرق
Ein Lichtstrom kam gefloss	جاء تيار متدفق من النور
Und wiederum vom Occident	وكيف أنه في مواجهة ذلك
Ein Mechtstrom hergeschóssen	انطلق من الغرب تيار من القوة

وربما كان الشاعر الإنجليزي كيبلنج Rudyard Kipling (١٨٦٥ ـ ١٩٣٦) شاعر الامبراطورية الذي تغني باستعمارها للأمم قد أحس هو أيضاً بالموقف وعبر عنه ، مشيراً إلى الفرق بين الشرق والغرب في مجال القور المادية ، فقال أبياته المشهورة التي تشير إلى وضع متناقض ، ولكنها ربما تفتح المجال أمام توازن من نوع آخر بين الشرق والغرب يستند إلى « السفور » أو « الروحانية » التي أشار إليها الشاعر الألماني ولا يستند إلى القوة المادية التي كانت فتفهمها وتطبقها الحضارة الأوروبية منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب العالمية الأولى . يقول كيبلنج :

Oh, East is East, and West is West,	الشرق شرق والغرب غرب
And never the twain shall meet,	ولن يلتقي التوأمان
Till Earch and Sky stand presently	حتى يقف أهل الأرض والسماء
At God's great Judgment Seat	أمام كرسي الحكم العظيم الديان

لكن ، لا يكون هناك شرق ولا غرب ولا حدود

But, there is neither East and West, Border,

Nor Breed, Nor Brith,	ولا تفاضل بالعرق ولا الميلاد
When two strong men stand face 10 face.	عندما يقف رجلان قويان وجهاً لوجه

وإن جاءا من أقاصي الأرض Tough they come from the ends of the Earth!

على أنه منذ أوئل القرن التاسع عشر ، بعد حملة نابليون على مصر ، بدأت علاقات حضارية جديدة بين الشرق والغرب ، تمثلها مصر ، ورغم اتفاق الدول على هزيمة مصر عند منتصف القرن ثم اختلالها في إطار خطة مشتركة بين دول الغرب ، لكن التجديد لم يتوقف .

وكان إرسال البعثات إلى أوروبا ، وكذلك إنشاء مدارس أوروبية في العالم العربي والإسلامي وتجديد نظم التعليم ، عوامل كبرى في معرفة حضارة الغرب وعلومه ولغاته وآدابه في بلاد الشرق .

وبعد الحرب العالمية الأولى بدأت حركات التحرر والاستقلال في كل بلاد الإسلام ، واستقل بعضها استقلالاً من نوع ما ، وبعد الحرب العالمية الثانية استقلت دول كثيرة .

لكن أحوال هذه الدول ظلت مضطربة ، وبينها خلافات حول مشكلات متنوعة ، ثم إنها دول جديدة تحاول أن تؤسس وتبني ، وتجد طريقها في عالم جديد ، ونظراً للحصول على السلاح الذي كان يقدمه الغرب فقد حدثت انقلابات وتغيرات ، بعضها جاء يحذو حذو الغرب .

والحق أنه بسبب الاتصال الوثيق نجد في الشرق من يمثل كل رأي أو اتجاه أو أسلوب حياة في الغرب .

وقد حاولت الدول العربية من طريق إنشاء « الجامعة العربية » أن تنظم أمورها كما كانت هناك محاولات ، من طريق « منظمات » تسعى إلى جمع كلمة الدول الإسلامية ، لكن مصير « الجامعة العربية » كان شبيهاً بمصير « عصبة الأمم » بعد الحرب العالمية الأولى ، وكذلك لم يتحقق الامتثال لمبادىء الإسلام في العلاقات بين بعض دوله وشعوبه . وهذا

يرجع إلى اتجاهات لا تتفق مع تلك المبادىء ولا حتى مع مبادىء السياسة الناجحة، وذلك كله ، وخصوصاً الحكم الدكتاتوري بحسب أيديولوجيات غير صحيحة ، تمخض عن الكارثة التي أدت إلى حرب الخليج وشمل شرها الأرض ومن عليها .

واليوم قد انتهى عصر الاستعمار الذي استمر قروناً ودخلت دول الشرق التي استقلت بعد الحرب العالمية الثانية في النظام الدولي لذي كان احترامه يختل بين حين وآخر بسبب بقايا من رواسب الماضي ، إلى جانب لعبة المصالح بين الدول وسياستها ، وذلك مثلاً في خيانة الأمانة والتحيز في الحكم بين الشعوب وعدم احترام حقوق الإنسان وحقوق الأديان ، كما حدث ذلك في مشكلة قيام دولة إسرائيل وما ترتب على ذلك .

وقد انتهت في عصرنا الحروب بين أهل الدين الواحد وكذلك بين الأديان المختلفة ، وبدت علامات التفاهم في الغرب ، وهو ما ننتظر أن يتحقق في الشرق ، وخصوصاً أن يتحقق التفاهم بين الحضارتين العظيمتين ، العربية الإسلامية والغربية المسيحية .

أساس إمكانيات التفاهم والتعاون :

يجب على المفكرين في عصرنا أن لا يتجاهلوا القول بأن حياة الإيمان بالخالق العظيم وبما أودعه في الإنسان من نفحة ربانية ، وكذلك حياج الفكر كما تتمثل في العلم والفلسفة وأمور الدين أكبر ما يمكن أن يجمع بين عقول المفكرين ، وخصوصاً بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي والشواهد على ذلك كثيرة في تاريخ الدين وتاريخ الفكر .

فعلى سبيل المثال بينما كانت حملات الصليبيين تتجه إلى بلاد الإسلام في الشرق كان كبار علماء العقائد في مختلف بلاد أوروبا عاكفين على دراسة الإسلام وعلومه ، وكانوا يواجهون المذاهب الفلسفية الباطلة التي تخالف عقيدة الحق مستندين إلى أدلة علماء الإسلام وفلاسفته ، وهذا نجده عند جيوم الأوفدني Guillaume d'Auvergne

(ت ١٢٤٩م) وهو أسقف وأستاذ فرنسي ، وعند الراهب الأستاذ الانجليزي Alexandre of Hales (ت ١٢٤٥م) وعند الراهب المتصوف والأستاذ الإيطالي Bonaventura (ت ١٢٧٤م) وعند الراهب الدومينيكاني الألماني Albetus Magnus (ت ١٢٨٠م) ثم خصوصاً عند أكبر علماء العقائد في العصور الوسطى ، صاحب المذهب المنسق ، وهو القديس Thomas of Aquin (ت ١٢٧٤م) الذي لا تفهم فلسفته إلا في ضوء فلسفة ابن سينا وابن رشد وعلم أصول العقائد الإسلامية .

وكذلك لما كان رواد المنهج العلمي الحديث يحاولون وضع الأسس لعلم جديد كانوا يعكفون على كتب العلم العربي الإسلامي ، هذا نجده عند الراهب الانجليزي Boger Bacon (١٢١٤ ـ ١٢٩٤م) وعند اللاهوتي الانجليزي John Duns Scott (ت ١٣٠٨م) والعالم الفرنسي Nicolas d'Autrecourt (ت ١٣٥٠م) .

وكذلك كانت مذاهب مفكري الإسلام في العلم والفلسفة وعلوم الدين أمام أذهان فلاسفة العصور الحديثة ، أمثال ديكارت Descartes (ت ١٦٥٠م) وبسكال Pascal (ت ١٦٦٢م) وجون لوك John Locke (ت ١٧٠٤م) وهيوم Hume (ت ١٧٧٦م) ، وليبنتز Leibniz (ت ١٧١٦م) وحتى عند كنت Kant (ت ١٨٠٤م) ، وهم جميعا عرفوا فلاسفة الإسلام وعلماءه ، ودخلت في معارفهم وفي مذاهبهم إلى حد ما .

ونحن لا نذكر هذا الكلام لمجرد التاريخ ، ولكن لكي يتبين أن العقل وطموحه إلى المعرفة هو الذي يجذب العقول المتفتحة بعضها إلى بعض ، ثم يعرف الأمم بعضها ببعض ويدعوا إلى التفاهم والتقدير المتبادل .

ولا نذهب بعيداً ، لأنه إذا كان المستشرقون الأوروبيون والأمريكيون قد عكفوا منذ قرون على دراسة الإسلام وحضارته بكل جوانبها الدينية والعقلية بأوسع معانيها وعلى الآداب الإسلامية العربية والفارسية والتركية والأوردية وعلى حياة الشرق الروحية في

التصوف وترجموا ذلك إلى لغاتهم ، وأحياناً ترجموا الشعر شعراً والنثر المسجوع نثراً مسجوعاً ، حتى القرآن الكريم نفسه أحب بعضهم أن يترجم منه سوراً على نفس الطريقة القرآنية في الأسلوب .

فهل كان ذلك إلا مع التقدير العظيم والتذوق الرفيع لثمرات العقل والقلب ؟ لا شك في ذلك ، وإني أنفي عن المستشرقين ما يتهمهم البعض به من خدمة الاستعمار فقط ، إلا من كان غير موضوعي ولا منصف ، وهؤلاء لا يكاد يكون لهم شأن .

وإذا كان ذلك يهيىء العقول للتفاهم والتقارب فإني أحب أن أسجل هنا أن التعليم العام ، وخصوصاً التعليم الجامعي في العالم الإسلامي كله ، يعني بدراسة كل من الفكر الفلسفي والاجتماعي الغربي والأمريكي ، كما يدرس الآداب الأوروبية والشرقية بوجه عام، حتى الآداب الكلاسيكية : اليونانية والرومانية كما في مصر ، ولا يكاد يوجد شاب مثقف ثقافة عامة إلا ويعرف شيئاً من ذلك ويعرف مبادىء لغتين أوروبيتين .

ومن هنا فإن الشرقي العربي المسلم والآسيوي المسلم وغير المسلم يحب الغرب ويحترمه ، ويحب أسلوب حياته ، ويجد في ذلك رفعة لفكرة . وإنه ليحق للمفكر العربي أو الآسيوي الذي يحرص على التعاون والتفاهم بين الشرق والغرب أن يسأل : أين مكان الاهتمام بالحضارة والفكر والأدب العربي الإسلامي والأدب الشرقي الآسيوي في التعليم العام للمثقف الأوروبي ؟؟ إن ذلك موضوع اهتمام المتخصصين في الدراسات العليا في الغرب ، فكيف يكون مصير التفاهم بين الأجيال المقبلة في الشرق والغرب ، إذا تباعدت العقول ، خصوصاً في مجال الآداب والفلسفة التي تربط بين العقول مثلما تربط بينها المعرفة العلمية .

الحاجة إلى تجديد الحضارتين :

أولاً : في الشرق :

يجري على لسان الكثيرين من المفكرين في الشرق كله بمعناه التقليدي ، كما قد يرد على لسان بعض علماء الدين الذين يريدون الإصلاح والتقدم ، أن شعوبهم متخلفة ، وأكبر ما يخشاه المفكر المتزن الذي يتأمل أحوال الشعوب ليتبين مقدار تقدمها أو تخلفها أن يكون تفكير أولئك المفكرين متجهاً إلى المظاهر المادية للحضارة أو للمظهر الخارجي للإنسان . وربما كانوا يرون أن حياة الترف المادي أو الثقافة الحديثة الزائفة أو التفنن في فنون التسلية للترويح من عناء العمل أو لمجرد قتل الوقت ، كل ذلك همو التقدم ، لكن هذا غير صحيح . فقر تكون المدينة الصغيرة بل القرية البسيطة ليس فيهما الكثير من مظاهر الحضارة المادية ، لكن الحياة فيها صحية هادئة ، وكذلك المظهر الخادجي للإنسان قد يكون متواضعاً جداً ، لكن وراءه عقل زين ، ونفس متوازنة ، وقلب طيب مستعد للخير ، وأسلوب حياة بعيد عن الترف الزائد عن الحد واللذات المفرطة ، مما يحفظ على النفس صحتها وعلى البدن سلامته . ولا أحد يستطيع أن يقول إن حياة المدن في عصرنا أهنأ في الحقيقة وأكثر إسعاداً لسكانها من حياة الريف بين أحضان الطبيعة أو من حياة بعيدة عن المدن .

إن التقدم والتخلف إنما يكون بحسب مدى تثقيف العقل الإنساني بعناصر الفكر الصحيح ـ والفكر الصحيح دائماً بسيط ـ وتغذية روحه بع ذلك بما تستكمل به النفس من فضائل الإيمان وبقية الفضائل الشخصية والاجتماعية ، مع شيئاً نفيس من الأدب والفن .

ولقد رأيت في الريف الأوروبي وفي أطراف من المدن الأوروبية أناساً بسطاء ، لكن على جانب كبير من الرقي الإنساني ، وعلى أخلاق رفيعة وتفكير متزن ، لكن مع ذكاء

فطري واستعداد لفهم أمور كثيرة يعتقد كثير من المثقفين المحدثين أنهم يتميزون بها عن غيرهم . إن المهم هو نمو الإنسانية بحسب طبيعتها الحقيقية ، وكل إنسان سليم الفطرة يعلم ما يليق بالإنسان . وبعد هذا فإن سعادته وازدهار حياته أمور تتوقف على نظام سياسي أخلاقي اقتصادي سليم يعيش في ظله حراً مسئولاً في ظل سلطة وقانون يؤمن بهما ويكفلان له الأمن والعمل والعدل والأمل ، وقد تبين بالتجربة إل أين سارت في بعض البلاد في الشرق والغرب النظم الدكتاتورية أو الأحزاب ذات الأيديولوجية المنحرفة ، وإلى أين سار الترف والجري وراء اللذات المنحرفة في بلاد يجب ، بحكم تزاثها الروحي وظروف شعوبها وشعوب أخرى حولها ، أن لا تجعل الترف بانحرافاته هدفاً في الحياة . وهنا ليتذكر الذين يجرون وراء الترف قول المفكر الفذ الذي يفخرون بعبقريته ، أعني ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ ـ ١٤٠٦م) ، أن الترف هو داء الدول ، وأنه يما ينشأ عنه من انحراف الإنسان عن سنة الطبيعة يؤذن بانهدام الحضارة الإنسانية .

إن كرامة الإنسان وقيمته تتوقف على العمل المنتج الذي يؤديه الإنسان بالكد والتعب لكي يكفي نفسه ويقيض على غيره .

والآن ، أمام بلاد الشرق كله شوط طويل وعليها أن تصلح أمورها ، وأولها الاجتهاد في التوصل إلى استقرار يتيح المجال للعمل المستمر المنتج بتخطيط مدروس لاستغلال كل إمكانيات البلاد بكل الوسائل الممكنة العادية . وفي كثير من الأحيان لا تحاول الشعوب أن تعمل بما يمكنها أن توصل إليه بوسائلها حتى التقليدية . ونظراً لتقدم الغرب في حضارته الحديثة وأحياناً الكبيرة المعقدة ، فإن شعوب الشرق كأنها نسيت أن حضارتهم ، وكذلك حضارة الغرب ، نشأت وازدهرت بوسائل أبسط من ذلك بكثير ، لكن على سواعد أبنائها وبوسائل اخترعوها وكانت عظيمة الإنتاج بفضل الدأب والمثابرة .

وإذا كنا نجد حضارة ضخمة قد ازدهرت في الغرب الأمريكي وصارت حضارة غنية وقوية فإننا يجب أن نتذكر مثلاً الجهد والصبر وقوة السواعد والكد ، مما مهد لكل تقدم بعد ذلك .

وليس معنى ذلك أني أدعوا إلى عدم التقدم التكنولوجي ، وإنما أدعو إلى استعمال القوى الإنسانسة الطبيعية قبل كل شيء إلى جانب ما تيسر من الوسائل التكنولوجية .

الديـــــن :

يبقى ، بعد هذا الجانب الديني ـ الروحي ـ الأخلاقي في حياة الشرق ، هنا لابد من الاعتراف بأن الدين بشريعته وأخلاقه هو السائد في حياة الجماهير ، ويجب أن نصرف النظر عن بعض المثقفين المحدثين أو الأجيال الجديدة التي سرت إليها بعض أساليب الحياة الغربية الحديثة ، ولابد أيضاً من الاعتراف بأن الدين والتمسك به هو الذي حفظ كيان شعوب الشرق إلى أن نالت استقلالها ، وأنه في أسوأ الظروف كانت العبادات بأنواعها بما لها من تأثير أخلاقي واجتماعي ، كما كانت أوامر الدين في بر الوالدين وصلة الأرحام وإكرام الجار ورعاية اليتيم ورعاية الغريب والتعاون لمساعدة المصابين بأي نوع من المصائب ، كل ذلك هو الذي حفظ حياة المجتمعات الإسلامية في أسوأ ظروف الحياة الاقتصادية وفساد الحكومات والسيطرة الأجنبية .

لكن ، لا شك أن الدين في حاجة إلى أنواع من الاجتهاد والتنظيم والتجديد ، بحسب أصوله الكبرى الكلية ، في فهم الجانب الاجتماعي والاقتصادي من الشريعة ، وهذا شيء قد بدأ بالفعل ، ولابد منه من المزيد ، بحيث يمكن الإصلاح بحسب ما يؤمن به الناس من أحكام الدين في تنظيم حياة العمل ، وتنظيم أمور الزكاة والصدقات وآداب الكسب والمعاش إلى غير ذلك

ولما كانت الأخلاق ، خصوصاً فضائل التقوى وما يترتب عليها ، مرتبطة بالدين ، فإنه يجب أن تدخل في التربية . وبكل اختصار فإن الدين كان وسيظل هو روح الشرق وكل ما يجب هو التنوير لمعرفة حقائقة النظرية والعملية ، مع مراعاة أن الحياة الإنسانية في الدنيا ليست كلها حياة دينية فحسب ، لأنها أيضاً حياة الدنيا وعمرانها والعمل فيها لأجل الكسب والسعادة بخيراتها ، بحسب آداب الحياة الإنسانية الحقيقية التي جاء بها الدين ، وكل ذلك بغير أن يكون الهدف هو الجري وراء الترف بل الحياة السليمة البسيطة الكفيلة بإسعاد الإنسان .

ويجب قيام دول الشرق بالتخطيط لإخراج نفسها من دائرة الفقر والاجتهاد في الترفع عن الرجوع إلى الاستدانة من الدول الغنية لأجل الترف أو المظهر ، لأن هذا داء أصاب الإنسان في الغرب ويجب على أمم الشرق أن تمتثل لتراثها الروحي وتكون مثلاً رفيعاً للإنسان الذي يسمو بنفسه إلى المستوى اللائق بعقله وضميره وكرامته .

وبعد هذا كله وقبل هذا كله يجب على القول الشرق أن تعرف العالم الكبير الذي تعيش فيه وخصوصاً أن تتعرف على حضارة الغرب فتأخذ كل ما فيها من خير حقيقي وتستفيد من التجربة الحضارية في مجال الديمقراطية واحترام الإنسان وكرامته وأن تعني بتربية أبنائها بحسب مثلها العيا المأثورة وبحسب اقتناء كل ما أدى إلى تقدم الإنسان في الغرب تقدماً صحيحاً من غير انخداع بما في الغرب من أمور يشكو منها مفكروه مر الشكوى ، وخصوصاً البعد عن الدين والإقبال على الدنيا في غفلة تامة عن حقيقة الإنسان وعن مصيره عند الكثيرين .

ثانياً : في الغـــرب :

كانت حضارة العصور الوسطى في الغرب حضارة دينية متينة البناء ضبطت أمور

الفكر والحياة من وجوه شتى ، لكن اهتماماً بالإنسان فيما بعد هذه الحياة كان أكثر من اهتمامها به في هذه الدنيا ، ولقد كان هناك فكر عميق وفلسفة جادة لكنها كانت في خدمة تلك النظرة للأشياء أي في خدمة الدين .

وفي عصر النهضة الأوروبية ظهرت أنواع عظيمة من التفتح على الحياة وملامح لفكر جديد ، وسجل عصر النهضة نظرات كثيرة رائعة فيما يتعلق بالإنسان وحياة فكره وقلبه وخياله في هذه الحياة .

وظهرت في الفكر الأوروبي قبيل العصور الحديثة حركتان لكل منهما دلالة خاصة وهما في مجال الدين ، حركة الإصلاح الديني أو النظر في إعادة التعبير والتشكيل للعقائد Reformation وفي مجال الفكر حركة إحياء العلوم القديمة Renaissance . وفي الحالين كانت أمام أذهان المفكرين معرفة وتصور للحركات الفكرية في العالم الإسلامي .

وعندما بدأ الاهتمام العلمي والفلسفي اتسم بنقد المعارف الفلسفية السابقة . ومنذ أن أعلن الفيلسوف الانجليزي بيكون Francis Bacon (ت ١٦٢٦ م) شعار العلم الحديث بقوله « العلم قوة » Scientia est Potentia وانه « Naturam parendo vincitur يمكن اخضاع الطبيعة من طريق طاعتها ، يقصد العلم بها » ، اتجهت العقول إلى المزيد من نقد المعرفة لاستبعاد عوائق سيطرت على العقول إلى حد أن بيكون اعتبرها بمثابة أصنام يخضع لها الفكر ويجب إزالتها عن سلطانها على العقول .

وكذلك منذ ذلك العصر بدأ في مجال الفلسفة النقد للتراث الذى وصل إلى ديكارت ، وأصبح « الشك المنهجي » Doute Méthodique الذى سار عليه ديكارت بقصد الوصول إلى الحقيقة منهجا طبيعيا ، كما كان ذلك في الشرق أيضاً منذ النهضة الفكرية الكبيرة في بغداد في القرن التاسع للميلاد عند المعتزلة يعتبرون ممثلى النزعة العقلية Rationalists في البحث في أصول العقائد ، ثم عند العلماء بعد ذلك مثل ابن الهيثم

العالم الطبيعي الكبير والغزالي عالم الدين الذي جدد الفكر الديني في عصره .

ومع الاتجاه إلى تجديد المعرفة والاهتمام المتزايد بالعلوم الطبيعية والكونية جاء الاتجاه إلى التطبيق العملي في أمور الحياة ، لكنه سرعان ما تحول إلى اختراع وسائل القوة في الصراع لأجل السيطرة والتوسع الاستعماري وما صاحب ذلك من حروب بين دول الغرب الجديدة القوية وبين دول الشرق على اتساعه ، وكذلك بين الدول الغربية فيما بينها ، واستمر ذلك إلى الحروب الكبرى في القرن العشرين ، مما أدى إلى يقظة الضمير الانسانس والاجتهاد في وضع نظامٍ للمحافظة على السلام بعد الحرب العالمية الأولى (عصبة الأمم) لكن الفشل في معالجة نتائج تلك الحرب ، إلى جانب انقلاب النظم الاجتماعية والسياسية بعد ذلك ، أدى إلى حرب أشدّ تدميراً . ثم جاء اكتشاف الطاقة النووية واستعمالها في الحرب فأدى إلى التسابق في صنع الأسلحة النووية وغيرها من أدوات التدمير للحياة بوجه عام بما في ذلك تدمير حياة الإنسان ، وهي تلك الوسائل التي كان من شأنها لو استعملت أن تقضي على الإنسان ومنجزات حضارته على كوكبه الجميل ، وعند ذلك استيقظ الضمير الغربي بشطريه الشرقي والغربي ، والآن تريد دولة كلها التعاون لأجل السلام وحل كل المشكلات التي تهدده وينشأ عنها الصراع بين الدول .

وفي أثناء القرون الأخيرة اتجه الاهتمام إلى تطبيقات المعرفة العلمية في عمران الدنيا أكثر من الاتجاه إلى العناية بالانسان ، وبدأ التباعد شيئاً فشيئاً عن الحياة والقيم الروحية الأخلاقية الدينية ، وازداد الاقبال على الحياة الدنيا والانصراف إلى حد كبير عن المصير العظيم للانسان بعد هذه الحياة ، وكان العلم في تطوره يقوى تلك الاتجاهات، وادت الحروب المستمرة ، خصوصاً الكبري الأخيرة وما أعقبها من تحفز لحروب جديدة أشد قسوة ، إلى أنواع من فقدان الثقة بالحياة وإلى ضعف الإبداع الانساني عند الكثيرين .

ثم إن الفكر العلمى فى الغرب قد تمخض منذ منتصف القرن التاسع عشر عن مذاهب كثيرة لم تكن دائما فى الريق إلى احترام مكانة الانسان والاعتراف بحقيقته المتميزة ، ومن ذلك مذاهب التطور على تنوعها Evolutionism التي زحزحت الانسان عن مكانة الرفيع بين الكائنات على الأرض وادخلته فى نظريات أخذت ترسخ فى الأذهان ، مثل نظرية الصراع من أجل البقاء والبقاء للأصلح فى عالم الحيوان .

ومن ذلك ايضاً مذاهب مادية أرادت تفسير نشأة الكون ونشأة الحياة على الأرض ، بل نشأة الانسان بكل ملكاته العليا ، تفسيراً ميكانيكياً صرفاً ، فزعزعت نظرة الانسان إلى الكون وإلى نفسه وتاريخ وجوده وتاريخ حضارته ، هذا إلى جانب حملة النظريات المادية على الدين الذى مهما قيل عن محتواه الاعتقادى أو عن ممثليه أو الحياة فى ظله إلا أنه كان فى الحقيقة بنظرته وأخلاقياته ونظمه ضابطا لنظام الحياة فى الغرب من طرق شتى.

وصاحب ذلك على صعيد الفكر الفلسفى وبسبب الانخداع بتقدم بعض العلوم الطبيعية ظهور اتجاهات فلسفية كالفلسفة الايجابية Potivism ، تحارب ، ستار نقد الميتافيزيقا الخيالية ، كل بحث متعمق عن حقائق الأشياء ، وانضمت إلى ذلك فلسفات ماديةفي إطار مذهب التطور تمحو من جديد الأصالة للسمات العقلية والأخلاقية الروحية الروحية للانسان ، ولا تكاد تعترف بمكان للدين وأخلاقياته وللقول بوجود مطلق أعلى وفوق العالم المحسوس الا اضرار (Herbert Spencer) (ت ١٩٠٣ م) ، وكانت هناك مذاهب تحارب تلك النظرة الميكانيكية المادية ، لكن على اساس تصور لنشأة هذا الكون وظهور الانسان اقرب إلى الخيال الأدبى منه إلى التصور العلمى الفلسفى « مذهب برجون فى التطور الخالق » (Bergson: Evolution Créatrice).

ومع انه قد ظهرت خصوصا فى فرنسا مثلاً اتجاهات ، تحارب النظرة الميكانيكية للعالم وتحاول ، من طريق تأكيد حرية الإنسان واختياره ، أن تعيد التوازن ، إلا أن التيار المادى والاتجاه إلى استعمال القوة تغلب ، بل ظهرت في الغرب من يحتقر النوع الانسانى الذى يصارع بكل اجتهاد فى سبيل بقائه ووجوده المتميز على الأرض ، واخذ يتطلع إلى ظهور انسان اعلى (Uebermensch-Superman) ، قوى لا يعرف المحبة والرحمة (Friedrich Nietzsche) (ت ١٩٠٠) مما أدى بدولة فى العصر الحديث قد تشعر بقوتها وتفوقها على غيرها إلى أن تدوس العهود والمواثيق أو تكون حلفا أو محورا عجيب التكوين ، غير متقارب لا فى الديار ولا فى الحضارة ، وتثير حربا تشمل العالم كله .

حتى إذا تقدم القرن العشرين وجدنا اتجاهات وفلسفات غربية ، منها فلسفات تصعب معرفةُ الغرض منها ، لكنها تواصل الحرب لكل اتجاه يتعمق فى المعرفة ويريد الوصول إلى حقائق الاشياء ، وتدخل فى أبحاث ليست لها نتيجة علمية أو فلسفية حقيقية ، لأنها تريد من طريق نقد اللغة واستعمال الألفاظ أن تبعد عن طلب الحقائق ، وتلح فى أنه لايمكن أن يكون هناك معنى قبول إلا لكلمة تدل مباشرةً على شىء ملموس أمامنا ، وهذا هو منهج ما يسمى الفلسفة الايجابية المنطقية Logical Positivism أو الفلسفة التحليلية التى زعزعت كل القيم المعنوية والأخلاقية النظرية وكلّ القيم الدينية إلى حد أنه يمكن القول إن كلمة إله لهذا العالم لا يقابلها واقع ملموس ، وعلى ذلك فلا وجود إلا لهذا العالم المادى ، وحتى ما فى أعماق الأشياء لم يكن يعنى دعاة هذا النوع من التفكير الذى كان استمراراً للفلسفة الايجابية فى القرن التاسع عشر ، وهى التى تجاهلت الحقائق الكبرى وبتاعدت عن الدين المسيحى بنظرته المتكاملة لهذا العالم وللانسان فيه ، وذهبت إلى حد اختراع دين عبادة الانسان .

وفى الفترة التى اعقبت الحرب العالمية الأولى إلى ظهور الحرب العالمية الثانية فلسفات عجيبة يصعب تصنيفها ومنها نظرة لهذا العالم على الأساس القول بأنه يجوز أن يحدث

شيء أو يظهر ويبرز هكذا من غير علة ولا مقدمات ولا غاية مقصودة ، ثم يتصول اصحاب هذه النظرة التى تسمى Philosophy of Emergence نشأة هذا الكون على نحو خيالى ، من أبسط عناصر المادة إلى أعلى صور الكائنات الحية ـ وصاحب هذه النظرة هو الفيلسوف الانجليزى Lioyd Morgan (ت ١٩٣٦ م) .

ومن ذلك تصور آخر يبنيه صاحبه على مفهومات ليست محددة تحديداً دقيقا ، وهى موضع نزاع ، مثل مفهوم المكان وارتباطه بمفهوم الزمان ، ويحلو لأصحاب هذا الاتجاه أن يتصوروا نشأة هذا الكون بكل مراحل الموجودات ودرجاتها بأنها ظهرت من تشكل الزمان / المكان على طفرات إلى أن يظهر الآله آخر الامر وهذه هى فلسفة الفيلسوف الانجليزى Samuel Alexandre (ت ١٩٣٨م) .

على أنه فى مقابل مثل هذه النظريات وما فيها من خيال كان لابد أن يأتى رد فعل يفسر هذا العالم وما فى تركيبه من نظام يدل على غائية وخطة صادرة عن قدرة حكيمة قادرة ، فيحارب النظرة الميكانيكية للأشياء ويتجه إلى الواقع وخصوصا إلى الانسان ويلاحظ أن اتجاه العلم الحديث وتطبيقاته يهدد النوع البشرى وحضارته فلابد من أن يهتم الانسان بالاخلاق لانقاذ الحضارة ، وهذا هو بايجاز مجمل فلسفة الفيلسوف الانجليزى Alfred North Whitehead (ت ١٩٤٧ م) الذى يرى فى الفلسفتين السابقتين شيئاً لا هو علم بالمعنى الحديث ولا هو فلسفة معقولة بل هو نوع من القول بالخوارق أو من التفسير الخزعبلاتى للأشياء .

فهل من الممكن ، بعد الطفرات الكبيرة فى المعرف العلمية بهذا الكون الاستفادة من مثل نظريات مورجان أو الكساندر ؟؟.

وإلى جانب هذه الفلسفات التى تقدم ذكرها توجد فلسفات هى فلسفات أزمات إنسانية نشأة عن أزمة الحضارة وأزمة الانسان فى إطارها ، ولا شك أن المآزق التى

انتهت اليها الحضارة فى الغرب تحتاج إلى الجد فى الخروج منها ، ولم يكن ذلك ممكنا إلا بالرجوع إلى حقيقة الانسان ومكانه فى الكون ومعنى وجوده ورسالته الخاصة على الأرض فى اطار النظرة المتكاملة التى تقدمت الاشارة إليها فيما تقدم .

لكن ظهرت فلسفات لا تهتم بذلك بل تركز على وجود الانسان من حيث هو كائن حى ، فلا تبحث إلا فى معاناته فى الحياة وفى الضرورات والظروف التى تحكمه ، وهذه هى الفلسفات الوجودية Existentialism التى تفرعت إلى فلسفة الحادية عند البعض (Jean Paul Sartre) تنكر وجود الآلة . أو فلسفة تؤمن بوجود وتعنى بالانسان أو فلسفة تتجاهل مكانه فى الكون ومعنى حياته ، وتقول اسمه قد « قذف به فى العالم » .

والخلاصة أنه منذ أوائل العصور الحديثة سارت الحضارة الغربية نحو تقدم هائل من الناحية العلمية وتطبيقاتها تمثل فى إنجازات رائعة لم تكن تخطر على البال ، ويحق للانسان أن يفخر بها ، مثل غزوه للفضاء وهبوطه على كواكب أخرى ، وهذه مجرد بداية والطريق مفتوح أمام الانسان ، لكن ذلك كان على حساب عناية الانسان بحقيقته ، وهذا ادى إلى نقد نتائج العلم الحديث التى من هذا النحو ، كما نجد ذلك عند علماء تاريخ الحضارة وفلاسفتها مثل المؤرخ الانجليزى الكبير Arnold Toynbee الذى كتب بعد هبوط الانسان على القمر ، فلفت النظر إلى أن الانسان فى حقيقته ليس مجرد كائن صانع وانما هو كائن اخلاقى ، وكذلك أدى الاتجاه نحو القوة والترف والبعد عن حياة الايمان إلى دعوة نحو العودة إلى الحقيقة الانسانية بعد أن فشل نظام الحياة البعيد عن الايمان كما فشل أيضا تطبيق نظام اقتصادى وسياسى واجتماعى اراد أن يسود الدنيا كما فشل فى تحقيق السلام والأمن للانسان .

وعند التامل فى الحضارة الحديثة ونظام الحياة فيها لا يمكن تجاهل جوانب كثيرة من شانها أن تحقق للانسان مقداراً من السعادة والرفاهية والأمن ، لكن لابد من الاعتراف

بوجود حيرة كبيرة تساور العقول امام كثرة الآراء وتضارب الاتجاهات ولا يوجد أمام الكثيرين جداً فى الغرب تصور متكامل للوجود والانسان والقيم ، كما كان ذلك فى عهود سبقت العصور الحديثة .

وإن ماتحقق للانسان من أنواع الترف والجرى وراء انواع المتاع الحسى كان على حساب حياة الروح ، ولا يمكن تجاهل أنواع الانحراف فى السلوك الانسانى ، وهى لم يكن يخطر على البال أن تظهر فى عصرنا العظيم وتهدد بأمراض ظهرت ويتحير العلماء فى كيفية معالجتها ، هذا إلى كثير من المعاناة النفسية التى لا يخيفها الابتهاج الظاهر والاقبال فى تفاؤل سطحى على خيرات الحياة ، ولولا وجود الكثير من وسائل الترويح والتسلية من طريق الفنون الجديدة الكثيرة لما استطاع الانسان الغربى أن يحتمل ضغط الحياة وشدة وطأتها فى الكد والسعى اليومى لأجل الحياة الحديثة .

وليس معنى هذا أن الحضارة الغربية حضارة مريضة بالمعنى الذى يتصوره المتشائمون ، وانما هى حضارة تطورت على نحو كبير وسريع إلى حد المفاجأة ، ولابد أن يصحب ذلك شىء من الاضطراب والانخداع ، لكن العلاج ممكن ، والانسان القادر على حكم الطبيعة يقدر من باب اولى على التحكم فى أمور حياته ، بفضل استعمال العقل والامتثال لمبادىء الاخلاق التى تليق بالانسان ، واذا كان ذلك قد يتحقق بفضل حكمة الحكماء ، كما حدث ذلك قديما وحديثا ، فانه يمكن أن يتحقق إلى جانب ذلك بما جاء به الدين المنزل من مبادىء لتوجيه حياة الانسان نحو ما يسعده فى حياته ويضمن له السعادة بعدها .

واليوم ، خصوصا بعد الأزمات التى عاشتها الحضارة فى المجال السياسى وبعد الازمات الأخيرة وما وقع فى الشرق العربى الاسلامى من حروب ، وخصوصا حرب الخليج وما نشأ عنها ، نجد اتجاها إلى تصور عالم جديد يلوح فى الأفق ، عالم امن

وسلام ونظام دولى عادل يشمل العالم الغربى الأوروبى والعالم العربى الاسلامى وما سواهما ، ويتطلع إلى حل أعضل مشكلات التاريخ الحضارى والدينى ، أعنى مشكلة السلام فى العالم العربى بكل ما يحيط بها من تعقيدات .

ويحق للانسان سواء فى الشرق أو فى الغرب أن يتفاءل بفضل الاتجاهات التى تدل فى الغرب أولا على حسن النوايا والإخلاص فى تحقيق الأمن والسلام ، كما يحق له أن ينتظر ثمرات حقيقية لجهود كبار الساسة والمفكرين .

وسائل الحوار ، أسئلة : •

والذى نحب أن نركز عليه فى هذا البحث هو ما يتعلق بالتعاون والحوار المثمر بين الحضارة الغربية فى اوروبا وامريكا وبين الحضارة العربية الاسلامية فى الشرق .

وإن كل من يعرف تاريخ الحضارة والسلام بين الامم الكبيرة ذات الحضارات وخصوصا تاريخ الحضارة بين الغرب بالمعنى المتقدم وبين الشرق يشعر بأنه لابد من وضع الخطط لتحقيق الغاية المنشودة .

وسؤال أول : كيف يمكن الحوار المؤدى إلى التعاون ؟

لقد تقدم كلام يشير إلى الاجابه عن هذا السؤال ، لكن الوصول إلى الغاية يقتضى وضع خطط حقيقية للتعارف الكافى بين الشرق والغرب ، لا على أساس أنواع من الدعاية الخطابية العاطفية ، ولا على أنواع من الاعلام السطحى الجذاب ، ولا على أساس كلام فى الصحف يعطى القارىء افكاراً أو توجيهات عابرة ، بل على أساس علمى يعنى بدراسة متكاملة لحضارة الشرق فى الغرب وحضارة الغرب فى الشرق . على نحو نقدى ، بغية الوصول إلى حضارة جديدة متكاملة فيها خير ما قدمه الشرق للانسانية من قيم وخير ما أبدعه الغرب وقدمه للعالم كله من ثمرات العلم ومن تجربة فى نظام الحياة السياسية .

ولابد إلى جانب ذلك من وضع خطط فرعية لمواصلة ما قد بدأ وتكرر من لقاءات ومؤتمرات للتعارف الفكرى والدينى الروحى بين الاسلام والمسيحية .

ثم إنه لابد من تيسير الامكانيات المادية لكى يتلاقى العلماء والفلاسفة والمفكرون على نحو مستمر بحيث تتقارب طرق التفكير والتقدير للأمور وتتقارب اتجاهات الاطراف المعنية فى تنوير العقول فى الجانبين .

وكما أن ذلك أمر لابد منه بالنسبه للمفكرين والعلماء فانه لابد منه أيضا لأجيال الشباب من الغرب ومن الشرق ، وهذا يقتضى التيسير على نطاق واسع للشباب الشرقى الموهوب لكى يدرس فى الغرب والتيسير للغربى الموهوب أن يدرس فى الشرق وتحيطه العناية فى كلا الطرفين حيث يدرس ويقيم .

وسؤال ثان : ما هى معالم الحضارة الجديدة التى يمكن تصورها ؟

لقد سبق ما يشير إلى هذا أيضا ، ولكن التجربة قد اثبتت أن حياة الحضارة فى الغرب ثم فى الشرق أخذت تتكدر ليس فقط من ناحية الحيرة والبلبة وعدم وضوح الغايات بل أيضا أخذت تتكدر فى الجو والهواء الذى يتنفسه الانسان ، وذلك لكثرة الانتاج الصناعى بالوسائل الموجودة واذا كان المقصود سلامة النفس وصحة البدن فان العلم الحديث يجب أن يتجه بكل جد ومثابرة إلى وسائل للانتاج الصناعى غير الوسائل الحالية وإلى انواع من الانتاج لا تؤدى صناعتها إلى تلويث الطبيعة ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى لابد من ثقافة انسانية جديدة للانسان بالمعنى العام الشامل تعنى بجانب حياة الفكر الصحيح وحياة الروح بمعناها الواضح البسيط .

وفى هذا المجال اذا كان الشرق بتراثه وتاريخه يمكن أن يقدم للغرب كثيراً من العناصر المطلوبة فان الغرب يستطيع أن يقدم للشرق إلى جانب النظم الديمقراطية والعناية بحقوق الانسان كل عناصر النزعة أو الروح الانسانية السليمة الجميلة

Humanism التـــى اثمرها الأدب الانسـانى فى الغرب ، إلى جانب تقديم ثمـرات العلوم التطبيقيـة ،لكن بحسب مثل اعلى جديد فـوق الانتمـاء المحلى إلى شـرق أو غرب ، وفـوق الأغـراض الذاتيـة ، وفـوق الميـول المسـرفـة إلى التـرف والـزخـرف الدنيـوى وكل ذلك من المحافظـة على الذاتيـة الانسانيـة المستقلة فى حـدود الـذاتية الشـاملة للانسـان ، فى فهم وتفهم واحتـرام متبادل ومحبـة تنبع من القلب الانسـانى المؤمن للانسـان الآخـر ، فياضـه غامرة ، فى بهجة وسعادة للمعطى والمتقبل ، على هذا النحو يمكن تصور الروح الانسانية العامة التى ينبغى أن تكون قدوة للناس جميعا فى كل مكان ، وهذا هو المنتظر من انسان يستنير بما يليه عقله وضميره وايمانه بالله .

وسؤال ثالث حساس ، وهو : كيف يمكن للجاليات العربية الاسلامية من افريقيا وآسيا أن تعيشر فى الغرب ؟

لقد بدت علامات كثيرة فى الفترة الأخيرة على أحاسيس وآراء فى الغرب الاوروبى تدل على عدم الارتياح للوجـود العربى ـ الاسلامى فى اوروبـا وعلى الرغبة فى تـاكيـد الـذاتيـة الأوروبيـة والمحافظـة عليهـا ، وذلك إمـا بأن تتمثل تلك الجاليـات حضـارة الغرب وأسلوب حياته كما هى فى تطوراتها الأخيرة التى لاتخلو من جوانب تستحق الاصلاح أو النقد ، وقد تدل تلك الأحاسيس على الرغبة فى أن يعود أهل الشرق إلى الشرق .

وهـذا كلـه يتنـافـى مع وقـائع كثيـرة ، أولاً مع الـواقع التـاريخى والحقـوق المكتسبـة للشرقيين فى الغرب ، ومع مـاحصل من أن جاليات كبيرة غربيـة عاشت فى الشرق وعملت وسعدت فترات طويلة .

والحديث يـدور فى الشرق ، على مستـوى الصحافة وعلـى مستوى آراء المفكريـن حول الانسـان وحضارتـه وانه أسـرة واحدة رغم اختلاف البلاد وانـواع الحضارات ، ويتسـاءل البعض بـالنسبة لبعض الـدول الأوروبيـة : هل هـى تتجـه إلى التمييز العنصـرى أو هل هـى

تفكر ، بحسب الخطط لوضع تشريعات تقيد هجرة من يريد من البلاد العربية الاسلامية الى الغرب بوضع تشريعات تحد من ذلك وتقيم بعض العراقيل فى طريقه .

والجواب أن الشرقى له الحق أن يعيش ويعمل فى الغرب على نفس الأسس والحقوق التى كان يعيش فيها الغربى فى الشرق ، وهى تتلخص فى أن يعيش كل بحسب عقيدته ومبادئه الاخلاقية والاجتماعية ، والمسلم الذى يريد أن يعيش فى الغرب يجب عليه أن ينضبط بآداب دينة وفضائله ، وأن يحترم اسلوب الحياة فى الغرب وأن يعمل بأمانة وشرف ، متعاوناً فى داخل النظام الذى يعيش فيه وانى لأعتقد ، على أساس التقدير للامور وعلى أساس التجربة ، أن المسلم المنضبط سيكون إنساناً ملتزما فى سلوكه ، وجاراً باراً بغيره ، على مثال جاره المؤمن البار ، وهو إذا كان مواطناً يتمتع بحقوق المواطن فانه يكون مواطنا صالحا .

وهذا كله هو الذى كفل الحياة السعيدة المحترمة لكل مؤمن يعيش فى بلاد الاسلام مهما كان دينه ، وان الاحترام والتقدير لاهل الاديان المنزلة الأخرى فى بلاد الاسلام نموذج يجب أن يحتذى فى كل دولة أو مجتمع تتنوع فى الأديان ، بحيث يتمتع كل فرد بحقه الطبيعى فى الحياة بحسب عقيدته مع الاحترام لغيره فى ذلك .

أما بعد أن اصبح أهل البلاد العربية الاسلامية يعرفون الغرب وحضارته ، ويتعلمون لغته ، ويعتزون بمعرفتها والالمام بآدابها ثم يكونون فى الغرب لكى يعيشوا ويعملوا فيواجهون احساسات من النوع الذى تقدمت الاشارة إليه ، فان هذا لا يتفق مع المثل الأعلى فى البلاد الأوروبية ، وهو احترام الانسان وحقوقه وحريته منذ اكثر من قرن ونصف ، فضلا عماأكدته الدول من تاكيد حقوق الانسان الجديدة بعد الحرب العالمية الثانية .

والخلاصة أن كل مفكر يؤمن بالوجود وبهذا الكون والمكان المتميز للانسان فيه يحق ، له بل يجب عليه ، أن يحلم بحضارة إنسانية جديدة وانسانية جديدة قد علمتها التجارب ، وهى تعلم الآن وتعمل كذلك على نحو ظاهر للعيان بعد حرب الخليج - أن الأسرة الانسانية واحدة فى ظل الايمان القائم على النظرة الصحيحة للوجود وللكون وللانسان فيه ، وهى نظرة يؤيدها العلم الحديث ، كما تؤيدها كل فلسفة جادة كانت تنشد الحقيقة .

والمفكر الحريص على كل هذه الآراء والمثل العليا يجد ما يجعله يشعر بالتفاؤل إذا قرأ تلك الكلمات التى يجدها فى اول لهذا البحث ، وهى تجمع بين الحقيقة التى تؤمن بها الأديان المنزلة وبين مايؤمن به مفكرون غربيون أدركوا المعنى الشامل للانسانية فى الشرق والغرب والعلاقة الوثيقة التى تكون بين عالمين يختلفان فى التسمية لكنهما عالم واحدة هو الانسان على كوكبه ممثلا لقدرة الخالق العظيم وحكمته .

خاتمـــــة

فى كتاب ظهر عام ١٩٣٢ فى انجلترا بعنوان Whither Islam ظهر بعنوان : وجهة الاسلام ترجمه كاتب هذا البحث ، وقد ألفه أساتذة كبار هم الاستاذ هـ . أ . رجب من جامعة لندن ، والاستاذ ل . ماسينيون من جامعة باريس ، والاستاذ ج . كامبفماير بجامعة برلين ، والاستاذ ك . ك . برج من جامعة ليدن بهولندا ، ولفتنانت كولونل فرار بالجيش الهندى سابقا ، وفى الكتاب وصف للعالم الاسلامى واتجاهاته حتى ذلك التاريخ، وفيه الكثير مما كان يشير إلى التطورات التى وقعت والتطورات المنتظرة .

وفى الصفحة الأخيرة من الكتاب مايشير إلى شعور المشرف على إصدار هذا الكتاب وهو الاستاذ جب ، بأنه ينتظر من الاسلام أن يعيد التوازن للحضارة الغربية ، بعد أن أخذ يختل بسبب رجحان أحد جانبيها ، وأن العالم الاسلامى يقف جنبا إلى جنب مع

الغرب الأوروبى متميزا عن المجتمعات الشرقية الصميمة فى الهند والشرق الأقصى ، ثم يقول : « لكى يصل العالم الاسلامى إلى أتم رقى فى حياته الثقافية والاقتصادية لايستطيع أن يستغنى عن التعاون مع المجتمع الأوروبى ، ولكى تصل أوروبا أيضاً إلى أتم رقى فى حياتها الثقافية ، ولا سيما فى حياتها الروحية لاتستطيع أن تستغنى عن القوى والكفايات التى توجد فى المجتمع الاسلامى ، ولن يستطيع أحد الفريقين أن يسترد ويستثمر قواه الكاملة إلا بعد أن يستعيدا ذلك التعاون الذى تمتع به الشرق والغرب فى ظل الامبراطورية الرومانية » .

هذا ما يقوله الاستاذ جب واليوم يعيش الاسلام والغرب فى ظل العلاقات الثقافية التى ازدهرت منذ ظهور ذلك الكتاب وفى ظل النظام الدولى الجديد .

ويذكر الاستاذ جب الذى عرف الاسلام وتاريخه وكتب عنه وعن حضارته أن الاسلام فى داخل العالم الغربى كله ، فى مقابل العالم الشرقى الاسيوى ، يسلك سبيلاً وسطاً بين المتناقضات الشديدة . وهو يعارض فوضى القومية الأوروبية والنظم العسكرية ، فى روسيا الشيوعية وغيرها ، وانه لم يقع بعد فريسة لهجمات الحياة الاقتصادية التى تتعرض لها أوروبا الحاضرة وروسيا الحاضرة أيضاً . يقصد فى ذلك الوقت ، ثم يذكر الاستاذ بكل اعجاب كلام الاستاذ الفرنسى الكبير ماسينيون الذى عرف الشرق وحضارته وخصوصا حياته الروحية فى التصوف وهو قوله :

« للاسلام الفضل فى أنه يمثل لنا فكرة عادلة عما يقوم به كل فرد من أبناء الوطن بدفع عشر ريع الأرض للخزانة العامة ، وهو يشن غارته على المبادلة المطلقة ورأسمالية البنوك وقروض الدولة والضرائب غير المباشرة على الأشياء التى لها أهمية جوهرية . ثم

إنه يؤكد حقوق الأبوين والزوج والملكية الفردية ورأس المال التجارى ، ونراه هنا يقف مرة أخلى فى مكان وسط بين الرأسمالية البورجوازية وبين الشيوعية البولشفية » . ثم يمضى الاستاذ جب قائلا :

« ولكن الاسلام له رسالة يؤديها من أجل قضية الانسانية ، فهو رغم كل شىء يقف اقرب الى الشرق الحقيقى من أوروبا اليه ، وله ماض مجيد من تفاهم الأجناس وتعاونها ولا يوجد مجتمع آخر سجل له من النجاح فى أن يجمع كثيرا من أجناس الانسان المختلفة مع التسوية بينهم فى المكانة والعمل وتهيئة الفرصة كما سجل للاسلام . والجماعات الاسلامية العظيمة فى افريقيا والهند واندونيسيا والجماعات الاسلامية الصغيرة فى الصين والجماعات الصغرى فى اليابان ، كلها تبين أن الاسلام لاتزال لها القدرة على أن يتألف العناصر التى لاسبيل إلى التوفيق بينها بسبب الجنس والتقاليد . واذا لم يكن بد من أن يحل التعاون محل النزاع بين المجتمعات العظيمة فى الشرق والغرب فإنه وساطة الاسلام شرط لابد منه ، لأن فى يده ، إلى حد كبير ، حل المعضلة التى تواجه اوروبا فى علاقاتها مع الشرق ، فان هما اتحدا زاد الأمل بلاد حدود فى بلوغ نتيجة سلمية . أما إن قذفت اوروبا بالاسلام بين أذرع خصومها ورفضت التعاون معه فلابد أن تكون النتيجة نكبة للطرفين » .

هذا ما يقوله ذلك العالم المتخصص ، والآن قد تغيرت الظروف وزادت العلاقات وثاقة وقوة ، وتشابكت المصالح بين الاسلام والغرب ، ومع انه يمكن الاستفادة من كلامه القيم وكلام غيره فى ذلك الكتاب إلا أن الامر يحتاج إلى أمور كثيرة لابد من النهوض بتحقيقها .

هذا حديث صادر عن عقل وقلب لمسلم شرقى عاش حياة الشرق فى جميع مراحل حضارته ، وهو منذ اكثر من نصف قرن عرف الغرب وهناك تثقف وعاش سنين كثيرة ولم تنقطع صلته ابداً وقد وجد فى الغرب من رعاية أساتذته ما يعترف به ، ومن المودة والمحبة والمعاونة من الانسان الغربى مايحتفظ به بين أحسن ذكرياته ـ وإنه ليحق له ، ويجب عليه ، أن يتحدث هذا الحديث إلى الانسان الغربى الذى عرفه ـ والله الموفق ،

القاهرة فى ٧ / مايو / ١٩٩١ م .

أ.د. محمد عبد الهادى أبو ريدة